دراسات في الأدب والعلم والفلسفة

عمر ابن أبي ربيعة المخزومي
وفصل في تطور الغزل والنسب في الشعر العربي

تأليف
عمر فرّوخ

دكتور في الفلسفة

دار لبنان للطباعة والنشر

الكلية الطريق الأولى: عمر بن أبي ربيعة

عمرُ بنُ أبي ربيعةَ شاعرٌ كبيرٌ لأنه شقّ طريقاً لم يكنْ مشقوقاً من قبلُ. إنه قَصَر شِعرَه على فنّ واحدٍ هو الغزَلُ ثم سلَكَ في هذا الفنِّ الواحدِ مسلكاً شخصياً بَحْتاً لم يُبالِ في القولِ فيه رأيَ أحد. ومعَ أننا نلومُ عمرَ بنَ أبي ربيعةَ لأنه كشف عن أشياءَ كثيرةٍ لا يجوزُ- في الوازعِ الاجتماعي- أن يُكشَف عنها للجيل النابتِ، فإننا لا نُنكِر أنه شقّ الطريقَ إلى الشعرِ المُحدَثِ الذي ازدَهَر في العصر العباسي. لقد كان عمرُ بن أبي ربيعةَ «شاعراً عباسياً» في العصرِ الأموي، كما كان عُمر بنُ عبد العزيز، بعَكسِ ذلك، خليفةً من الخلفاءِ الراشدين في العصر الأموي. من أجل ذلك لا نستغربُ إذا رأينا عمرَ بنَ عبد العزيزِ لا يسمحُ لعمرَ بن أبي ربيعة أن يدخلَ عليه لأن شعره كان خارجاً على المألوفِ الخُلُقيّ في صدرِ الإسلام وفي أيامنا أيضاً. ولكن ليس من الضَروريّ أن نُورد في دراستنا لعمر بن أبي ربيعة جميع مداركِ الغزلِ التي عبّر عنها عمرُ بنُ أبي ربيعة.

وإذا كان عمرُ بنُ أبي ربيعة شاعراً، وشاعراً وجدانياً أيضاً، فليس من الضروري أن نُعالج حياتَه وشعرَه معالجةً وُجدانيةً، بل يمكنُ أن نُعالجها معالجةً عِلمية- ثم يحسُنُ ذلك أيضاً-. ولعل المُعالجةَ العلميةَ الرصينة تُنصِفُ عمرَ بنَ أبي ربيعةَ أكثرَ مِمّا تُنْصِفه المعالجةُ الوُجدانية الخيالية الهيِّنة.

ع.ف.

تاسع رجب ١٣٩٧ الموافق ١٩٧٨/٦/٥

مقدّمة
ديوان عمر ودراسته

لديوانِ عُمَرَ بنِ أبي ربيعةَ قيمةٌ اجتماعية فوقَ ما له مِن القيمة الأدبية. إنّ هذا الديوانَ يُمثّلُ شاعراً تبرَّع لنا، غيرَ مُكرَه وغيرَ مُغرىً بمالٍ أو جاه، بوصفِ جانبٍ من الحياة الاجتماعية في الحِجاز في النِصف الثاني من القرن الأول للهِجرة (في النصف الثاني من القرن السابع للميلاد). لقد وصَف لنا عمرُ ذلك الجانبَ من الحياة - عَرَضاً في شِعرٍ عَذْبٍ- بشيءٍ كثير مِن الحرية ومن الدِّقّة المُمكنة في الشعر. من أجل ذلك كان شعرُ عُمرَ بنِ أبي ربيعة مصدراً مساعداً لدراسة الحياة الاجتماعية في الحِجاز، في ناحيةِ اللّهْو والأنس.

ثم هنالك رأيٌ في ضَبْطِ اسم «عُمَر بنِ أبي ربيعة». إن النُحاة قد اشترطوا لحذفِ همزةِ «ابن»، في أسماءِ الأعلام، شرطيْنِ اثنين:

- أن يأتيَ لفظُ «ابن» بين عَلَمين مُفردَين (لا صِفةً ولا كُنيةً).
- أن يكونَ صاحبُ الاسمِ الأول ابْناً لصاحبِ الاسمِ الثاني.

واسمُ عمرُ بن أبي ربيعة ينقصُه هذان الشرطانِ كِلاهما. إنّ صاحبَ هذه الترجمةِ، في الدرجةِ الأولى، «عُمَرُ بنُ عبدِالله» (وأبو ربيعة جَدُّه). ثمّ إنّ «ابن أبي ربيعة» ليس اسماً مفرداً، بل كُنيةٌ هيَ «أبو ربيعة». من أجل ذلك رأى الدكتور جبرائيل جبّورٍ في كتابه «عُمَر بن أبي ربيعة» إثباتَ الهمزةِ مطلقاً. ولا جدال في صحة هذا الرأي، ولكن العرب قد قالوا: «خطأ مشهورٌ خيرٌ من صوابٍ مَهجور». فإذا أنتَ رأيتَ الرسمينِ في هذه الدراسةِ- أحياناً بإثباتِ الهمزةِ في «ابن» وأحياناً أُخرى بإهمالها- فلا تستغرب ذلك.

والدراسةُ التي بين يَدَي القارئ الآنَ كانت قد صدرتْ في نطاقها الضيّق (١٣٦٠ هـ= ١٩٤١م) لَطَبقةٍ من القرّاء. ثم إني رأيتُ أنْ تَتّسعَ اتساعاً معقولاً، ففعلتُ. وها أنا

ذا الآن أزيدُ في سَعَتها شيئاً قليلاً. إن عُمَر شاعرٌ فَذٌّ في كثيرٍ من جوانبِ حياتهِ وفي مَنحى أدبه. ولو أنّا شئنا أن نختارَ خمسةَ شُعراء يمثلون العبقرية العربية في فنونهِمْ من الشعِر لجعَلناهم عُمَر وأبا نُواس وابنَ الرومي والمُتنبي وشوْقي. ولكنّ عمرَ، دون هؤلاء جميعاً، قصَر شِعره - إلا أبياتاً قليلةً ومقاطع مِثلها مَنثورةً هنا وهنالك- على فنٍّ واحدٍ هو الغزَل، ذلك الفن الذي كان المرآة الصافية لشخصيةِ عُمر ولمجرى حياتهِ ولمقدرتِه.

ومعَ هذا كلّه، فإني رتّبتُ الشعراء الخمسة بحسْبِ وَفياتهم. ولو أني تُركتُ حُرّاً من قيودِ السنين لأنسقَ هؤلاء الشعراء على مراتبهم في تمثيل العبقرية العربية لكان نسَقهُم على الترتيب التالي: المتنبي(٣٥٦ هـ) ثم شَوْقي (ت ١٣٥١هـ =١٩٣٢م) ثم ابن الرومي (ت٢٨٣هـ) ثم أبا نواس (ت١٩٩هـ) ثم عُمرَ (ت٩٣هـ).

وقيمةُ عمر الحقيقية أنه شاعرٌ انطلق على سَجيّتِه ولم يقُل إلا في شأنٍ نفسه. لم يكن لحياته-فيما يبدو لنا- ظاهرٌ وباطن. ثم إنّ الزمن لم يَقسُ عليه، فلا نعلَمُ أنه شكا أو احتاج إلى تكسُّب، ولا أن الدنيا ألَحّتْ عليه بشيء من مصائبها. ولم يتخيّل عمرُ حالاً إلا جاء ما يتخيَّله في حياته العمَلية على حَسْب ما يشتهي ويقترح. وكانتْ له مكانةٌ فوق كثيرينَ من أنداده ومِمّن هم في السُلَّم الاجتماعي فوقه. لقد كان الخلفاء والعلماء والأشراف يُدارونه، معَ أنّ شِعرهُ لم يكنْ من النمَط الذي يرضى عنه هؤلاء الخلفاءُ والعلماء والأشراف.

والذين اهتموا بشعر عُمر بن أبي ربيعة كِثارٌ جداً، فقد كان لعُمر شهرة محببة إلى النفوس، وقلّ رجلٌ من مؤرخي الأدب لم يخصّ عمَر بفصلٍ من كتابه. وهنالك من ألّف فيه كتاباً تاماً، ولكن لم يَصِل إلينا من تلك الكتب التامة شيءٌ. أما فيما عدا الكتبِ التامةِ الخاصة بعمرَ ابن أبي ربيعة فلم يَصِل إلينا أوسع مَدى مما صنعه أبو الفرج الأصفهاني (ت٣٥٧ ه) في كتابه «الأغاني» (دار الكتب المصرية ١: ٦٠-٢٤٨)، نحو مائةٍ وتسعين صفحةً في مكانٍ واحد.

وأما الذين عمِلوا في البحث في حياةِ عُمر وشِعره من المعاصرين لنا فهم كِثارٌ أيضاً، ولكن لا بد من الإشارة إلى ما يلي:

(١) إن أولَ الذين اهتموا بديوان عُمر بن أبي ربيعة ونَشروه كان الأديب البيروتيّ مصباح اللبابيدي، جمع ديوان عُمر من مخطوطاتٍ عدّة ولم يكلفُ نفسّه عَناءَ ترتيب لها، على القوافي على الأقل. يبدأ هذا الديوان بحرفِ الراء ثم يستمر على المِنوال التالي:

حرف الراء (ص٢-٣٣)

حرف العين (ص٣٣-٤٠)

حرف الميم (ص٤٠-٥٨)

حرف النون (ص٥٨-٧٢)

حرف الدال (ص٧٢-٧٨)

حرف اللام (٧٩-٩٦)

بعدئذٍ تأتي الهمزةُ فالباءُ فالجيمُ فالحاء فالدال (مرة ثانية) فالراء (مرة ثانية) فالسين فالضاد فالفاء فالقاف فالكاف فالميم فالعين فالنون فالهاء فالباء (١٠٨- ١٢١) فالقاف (١٢١- ١٢٧) فالتاء فالألف المقصورة فالهمزة فالضاد فالفاء فالميم فالحاء فالفاء فالهمزة الخ. وقيمة هذا الديوان تاريخية إذْ هو أول طبعاتِ ديوان عمر بن أبي ربيعة (بنَفقة مصباح اللبابيدي مدير المكتبة التي بجوار سيّدنا يحيى - الجامع العُمري الكبير -في بيروت). وقد عَهِد مصباحُ اللبابيديُّ إلى مُحمد الزهريّ الغمراوي المصري بتصحيح هذا الديوان (عند الطبع). وتّم طبعُ هذا الديوان في مِصر، في المطبعة الميمنة، سنة ١٣١١ للهجرة (١٨٩٣).

(٢) ثم اهتمّ بعُمَر بنِ أبي ربيعةَ وديوانه المستشرقُ الألماني باوْلُ شْفارْتزُ[١]. أعدَّ باول شفارتز نفسه للتخرجُ في جامعة لِيْبْزِغْ (ألمانيا) برسالةٍ موضوعها: عمرُ بن أبي

(١) باول شفارتز (١٨٦٧ - ١٩٣٨م) مستشرق ألماني تخرج في ليبزغ على آوغست فيشر (١٨٦٥ - ١٩٤٩م) وكانت رسالته «عمر بن أبي ربيعة شاعر عربي من العصر الأموي». اختصاصه الشعر العربي. تولى التدريس في جامعة ليبزغ إلى آخر أيامه. أدركته (فصل الشتاء ١٩٣٦ - ١٩٣٧) وكان يعطي تفسير القرآن، ولكن كثيراً ما كنت أسأله عن الشعر العربي وعن عمر بن أبي ربيعة خاصة. في ذلك الحين كان قد أصبح عاجزاً يؤتى به إلى الجامعة في كرسي. وأذكر أن بعد عطلة عيد الميلاد لم يعد إلى التدريس. له ديوان «عمر بن أبي ربيعة» في ثلاثة أقسام (١٩٠١ - ١٩٠٩م) دين معن بن أوس غريب القرآن ـ الأمثال العربية وغيرها، وله بحوث كثيرة في العرب والإسلام.

ربيعة شاعرٌ عربي من العَصر الأموي، عام ١٨٩٣م (١٣١١هـ)، في السنة التي نَشر مصباح اللبابيدي ديوانَ عمر. ثم عُني شفارتز بعمر وديوانه فأصدر «ديوانَ عمر بن أبي ربيعة» في ثلاثة أقسام، عام ١٩٠٢-١٩٠٨م (١٣٢٠-١٣٢٦هـ). هذه الطبعة من ديوان عمرَ هي أفضلُ ما صنَعه الدارسون والناشرون لديوان عمرَ، لما فيها من الدقة والشمول والتنظيم والفهارس. ثم أصدرَ شفارتزُ قسماً رابعاً (عام ١٩٠٩م) في حياةِ عمرَ وشِعره.

(٣) ثم اتجه الدكتور جبرايل جَبّور[1] إلى دراسة شِعر عمر ابن أبي ربيعةَ وعصرِهِ وحياتهِ وقضى في ذلك زمناً طويلاً جداً فأعطانا أوفى ما بَيْن أيدينا اليومَ في هذا الموضوع.

ومع أنَّ عُمر بن أبي ربيعة (٢٣- ٩٣هـ) شاعر من العَصر الأموي (٤٠-١٣٢هـ)، فإن في شِعره خصائص تقرُب من أن تكون مُحْدَثة عبّاسية، مع أنه تُوفي قبل مجيء العصر العباسي (١٣٢هـ= ٧٥٠م) بنحو أربعينَ سَنة. إنك تجِدُ في ديوانِ عمر أسلوباً جاهلياً متيناً فخماً إلى أسلوب مُحدَث أو كالمُحْدَثِ فيه حلاوةٌ ولينٌ يميل إلى الركاكة.

ولم تَسْتوِ أحكامُ النُقاد في شعرِ عمر، فمن النُقاد من رَفعَه، ومنهم من حَطّ منه، ولكنهم كلِّهم كانو معجَبين به وبسيْرورةِ شِعره على الألسُن. أستطيع أن أقولَ: إن الشعر الذي وضعَ عمرَ في هذه المكانة كان كلاماً عادياً معقوداً بالقوافي وجارياً في

(١) ولد جبرائيل سليمان جبور في بلدة القريتين (سورية) في عام ١٩٠٤. درس في الكلية السورية الإنجيلية (الجامعة الأمريكية، فيما بعد) في بيروت وتخرج فيها برتبة بكالوريوس علوم (١٩٢٥م) ثم برتبة أستاذ (١٩٣٣). ونال رتبة دكتوراه (برنستون ـ الولايات المتحدة ١٩٤٧م). وكان منذ عام ١٩٢٦ متصلاً بالتدريس في جامعة بيروت الأمريكية حتى أصبح فيها رئيساً للدائرة العربية (١٩٥٠م). له «ابن عبد ربه وعقده» (١٩٣٣م) الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة لنجم الدين الغزي ـ نشر وتحقيق ١٩٥٤ـ ١٩٥٨م) عمر بن أبي ربيعة: عصره (١٩٣٥م)، حياته (١٩٣٩م) حبّ عمر بن أبي ربيعة وشعره (١٩٧١م)- من تراثنا: قول وخبر (١٩٧٥م).

النظم المُطرب وفي التراكيب السَّهلة المؤلّفة من الألفاظ الفصيحة الدائرة في الحديث العاديّ. ولم يكن لعمر أعداءٌ شخصيون حتى يكونوا أعداء لشعره أيضاً. هذا معَ أن الفقهاء وأرباب البيوتاتِ لم يكونوا راضين عن شعر عُمر لصراحته في الغزل وكشفه عن كثير من خبايا النفس الإنسانية في الحياة العاطفية.

***

الغزل والنَسيب في الشِعر العَربيّ

نريد أن نستعرضَ في هذا الفصل تطوُّر «الغزل والنَسيب» في الشعر العربي على وجه الإيجاز. نبدأ بأقدم الأعصُر وننتهي بانتهاء العصر الأمَويّ، لأن هذه الدراسة مخصوصةٌ في الأصل بشاعرٍ عاش في العصر الأموي.

١- الأدب الوُجدانيّ والأدب الوَصْفيّ

أقسام الأدب:

ينقسم النتاج الأدبي قسمينِ اثنينِ:

أ- النتاجَ الوجدانيَّ، وهو ما يعبّر فيه الأديبُ عما يشعرُ هو به.

ب- النتاج الوصفيّ، وهو ما يَرسِمُه الأديبُ من مظاهرِ البيئةِ التي يعيشُ فيها.

ولكنْ يصعبُ أحياناً أن نقسِمَ فنونَ الأدب بين الوجدانِ والوصفِ من عناوين تلك الفصول. إن المديح فنّ وصفي في الأكثر، ولكنه قد يكونُ وجدانياً. إن المديحَ للتكسُّب وحده إنتاجٌ وصفيّ، أما المديح للإعجاب فإنتاج وجداني. وكذلك الرثاءِ والهجاء. والغزل في الأصلِ أيضاً فنّ وُجدانيّ، ولكنه قد يكون غزلاً تقليدياً لا صِلة له بشعور قائلهِ. من أجل ذلك يحسُنُ أن نُفرِّع قِسْمي الأدب كما يلي. هنالك:

أ- **فنٌّ وُجدانيّ خالصٌ**، كقولِ عُمر بنِ أبي ربيعةَ:

قـالَ لي صـاحـبي ليَعـلـمَ مـا لي: أتُحِبُّ الـقَـتـولَ أُخـتَ الـرَبـابِ؟
قُلتُ: وَجدي بها كوجدِكَ بالعَذْبِ إذا مـا مُـنِـعـتَ طـعْـم الـشراب!

ب- **فنّ وصفي خالصٌ**، وهو أن تَصِفَ الشيء كما هو مع شيء من الصِناعة والمبالغة كقول البُحتري يَصف البركة التي بناها الخليفةُ المتوكلُ في سامّراءَ:

تنصبُّ فيها وُفودُ الماء مُعجَلةً كالخيلِ خارجةً من حَبْلِ مُجريها
كأنما الفِضّةُ البيضاءُ سائلةً من السبائك تجري في مجاريها
لا يبلغ السَّمكُ المحصور غايتها لبُعد ما بين قاصيها ودانيها

جـ - **فنّ وصفيّ وجدانيٌ**، وهو أن يرى الشاعرُ ما حولَه ثم يتأثرُ به ويَصِفه كما يحبّه أن يكونَ لا كما هو فعلاً. وهذا النوعُ يكثرُ عند ابنِ الرومي، كقوله:

حَيّتْكَ عنا شَمالٌ طاف طائِفُها بجَنّةٍ نفحَتْ روحاً وريْحانا[1]
هَبّتْ سُحيراً فناجى الغصنُ صاحبَه سِراً به وتداعى الطيرُ إعلانا[2]
وُرْقٌ تُغنّي على خُضْرٍ مُهدَّلةٍ تسمو بها وتَمَسُّ الأرضَ أحيانا[3]
تخالُ طائرَها نشوانَ من طربٍ، والغُصنَ من هَزّهِ عِطفيْهِ نشوانا!

وهذا الباب مُتّسعٌ في الشعر العربي يدخلُ فيه رثاء جريرٍ وابنِ الروميّ لأهلِهما، ومديحُ امرىءِ القيسِ للمُعلّ (شكراً لا تكسُّباً) ومدائح زُهيرٍ في هَرِمِ بنِ سِنانٍ، وقصيدةُ الفرزدق في زين العابدين.

د- **الفن العقلي**، وهوالفنّ الذي لا يعتمدُ العاطفةَ بلِ التفكيرَ والمنطق، كالحِكَم والأراجيز العِلمية والقِصص التاريخية(أحياناً). هذا النوع يكثر في شعرِ الشعراء الحكماء كحِكَم زُهير (لا حكمِ طرَفةَ بنِ العبد) وكحِكَم المتنبي والمعرّيّ، وكوصف الناقة لِطرَفة.

---

(١) الشمال: الريح الشمالية (وتكون في شبه جزيرة العرب وفي العراق باردة لمرورها فوق جبال فارس).وقد أحبها الشعراء العرب وأكثروا من ذكرها منذ الجاهلية. قال النابغة: :تزجي (ترسل) الشمال عليه جامد البرد (بفتح ففتح)".الروح (بالفتح): الروح وما يحسّ به الإنسان من الانتعاش. الريحان: نبات طيّب الرائحة.

(٢) سحيراً: قبل الفجر بقليل، ناجى: خاطب بصوت منخفض. تداعى الطير: دعا بعضه بعضاً.

(٣) ورق جمع ورقاء: حمامة. على خضر (أغصان خضر) مهدّلة: مدلاة.

ونحن لا نرى وراء هذه الأنواع الأربعة نوعاً إلّا هو فرعٌ منها، معَ أن ابنَ رشيقٍ قد سبَقنا فجعل الشعرَ كلَّه نوعاً واحداً: وصفاً.

وما يصدُقُ على الأدب عامّة يصدقُ على الشعر خاصة.

المرأة والشعر:

هذا الفصلُ التمهيديُّ يتناول «الغزل»، والغزلُ فنٌّ وُجدانيٌّ في الأغلب موضوعُه «المرأة». من أجل ذلك وجب أن نُقدّمَ كلِمَةً في صِلةِ المرأة بالشعر:

لا شكّ في أنّ العاطفةَ الأولى التي عبّرَ الإنسانُ عنها بلسانه كانت شعورَه نحو المرأة. ولعلّ المستشرقَ الألماني وِلهلم آلورت لم يُبالغ كثيراً حينما قال في كتابِهِ «الشعرُ وصِناعةُ الشعرِ عند العرب»: إنه لولا المرأةُ والحُبّ لَمَا كان ثَمّةَ شعر[١].

لقد أثارتِ المرأةُ عاطفة الشاعر- والشعراءُ في مجموعهم رجالٌ- لأنها موضوع «شريف» أو «عزيز» على الأصح. لقد بنَى اللهُ الوجود الإنسانيّ على الصِلة بين الرجلِ والمرأة، ولكنه قيّد هذه الصِلة بقيودٍ ثقُلَتْ على النفسِ البشرية، فنفّسَ البشرُ عن أنفسِهم بالكلام على المرأة وعن المرأة (بأنْ قالوا ما كانوا يَتَمَنَّوْنَ أن تقولَه هي عن نفسها).

الغزل والنسيب والتشبيب:

يُطلق علماءُ الأدب على موضوع المرأة في الشعر العربيّ أسماءً مختلفة، فهم يسمّونه الغزل أو التغزُّل، ويسمّونه التشبيب أيضاً. وبرغم أن ثمة فُروقاً بارزة بين هذه الكلمات، فإن كثيراً من النُقاد القدماء، ومن المؤلفين المتأخِّرين ومنِ المعاصرين لنا قد آثروا أن يتجنّبوا عَناء التميز بينها. فمن أكابر النقّاد القدماء أبو عليٍّ الحسنُ بنُ رشيق القَيروانيّ الذي صَرفَ هذا الموضوع في كتابه «العُمدة في صناعة الشعر ونقده» بهذه الإشارة العارضة[٢]:

---

(١) Ahlwardt, Poesie S.53.

(٢) العمدة٢: ١١١، راجع ١٢١، ١٢٢.

«والنسيب والتغزُّل والتشبيب كلها بمعنىً واحد. وأما الغزل فهو إلْفُ النِساء والتخلّق بما يُوافِقُهن، وليس مما ذكرتُه في شيء. فمن جعله بمعنى التغزّلِ فقد أخطأ. وقد نبّه على ذلك قُدامةُ (بنُ جعفر) وأوضحه في كتابه «نقد الشعر».

فابن رشيق، إذَنْ، يجعل النسيب والتغزل والتشبيب بمعنى واحد، هو ذكر محاسن النساء في ألفاظ حلوة ومعانٍ سهلة وكلام ظاهر[١]. غير أنه يجعل الغزلَ شيئاً آخرَ، هو الصلةُ بين الرجل والمرأة لاَ قولُ الشعر في محاسنها.

إلّا ! أن قراءة الشعر العربيّ توحي بأنّ ثمة اختلافاً كبيراً، بين النسيب والتغزل والتشبيب، أحببت دائماً أن أؤكدَه[٢]، وأحبُّ هنا أن أمُدّ فيه القول:

أولاً- الغزل والتغزل:

ومَعَ أنّ كلمةَ (غزل) تُطلَق اليومَ على الشعر الذي يدور حول المرأة، تساهلاً وتجوُّزاً، فإن الغزل في حقيقته «مُغازلة النساء ومحادثتهن» كما جاء في «تاج العروس»(٨: ٤٣). ولقد نقلَ صاحبُ «التاج» كثيراً من الآراء في ذلك: نقل عن ابن سِيدَهْ أن الغزل هو «اللهو معَ النساء»، ونقل عن قُدامة بِن جعفر أنّ الغزلَ «إنما هو التصابي والاستهتار في مودّات النساء». ثم شرح ذلك كلّه فقال (تاج ٨: ٤٣): إن الغزلَ هو الصِفات والحركات والأقوال التي تحبّبُ الرجلَ إلى المرأة، ولا صلة له هنا بقول الشعر. أما التغزلُ فهو التظاهرُ بتلك الصفات. فالغَزِل (بفتح الغين وكسر الزاي) هو الرجل الذي وهبته الطبيعة صفاتٍ محببةً إلى النساء. والمتغزل هو الذي يتكلّف تلك الصفاتِ وليست هي فيه.

النسيب والتشبيب:

وكذلك وَقعَ الاختلافُ بين النُقاد على تعريف النسيب والتشبيب. ولكنّ نفراً

(١) العمدة ٢: ١١٠، ١١٢، ١٢١.
(٢) راجع جريدة الأحرار، بيروت، في ٥- ١٢ -٣١ و٢٧ -١٢ -٣١، ثم أبو نواس (للمؤلف) الطبعة الأولى١ : ٣٧ الخ...

منهم قد فضّلوا التفريق بَيْنهما: فقد فرّق بينهما تفريقاً واضحاً عبد اللطيف البغدادي، لمّا قال (تاج ٨: ٤٣): إنّ التشبيب إنما هو ذِكرُ صفاتِ المرأة المحبوبة: وأمّا النسيبُ فهو ذكر عاطفة الشاعر المُحِبّ. فنحن هنا، إذَنْ، أمامَ صفتين متقابلتين: إذا عالج الشاعرُ شعورَه هو نحو المرأة فإنما هو يَنسِبُ بها، وأما إذا وصف المرأة كما هي فإنما هو يشبّب بها.

وزادَ عبد اللطيف البغداديّ هذا الموضوع شرحاً وتوضيحاً فقال: إن النسيب والتشبيب متشابهان، و«لتشابههما لا يُفرِّق اللغويون بينهما، وليس ذلك إليهم». فهو يُنكِرُ، إذَنْ، أن يكونَ الفصلُ في ذلك من عمل عُلماء اللغة. ثم يقول هو أيضاً (تاج٨: ٤٣): «اعلم أنّ النسيبَ والتشبب والغزل ثلاثتهما متقاربةٌ، ولذلك يعسر الفرق بينها حتى يظنَّ بها أنها واحد. ونحنُ نوضح لك الفرق فنقول: إن الغزل هو الأفعال والأحوال والأقوال الجارية بين المُحِبِّ والمحبوب نفسُها. وأما التشبيب فهو الإشادة بذِكر المحبوب وصفاته وإشهارُ ذلك والتصريح به. وأما النسيبُ فهو ذِكرُ الثلاثة، أعني حال الناسب (الشاعرِ المحل) وحال المنسوب به (المرأة المحبوبة) ثم الأحوال الجارية بينَهما. فالتشبيب داخل في النسيب، والنسيب ذِكْرُ الغزل».

ويؤكِّد معنى التشبيب خاصةً ما ذكَره الأصفهاني (الأغاني١: ١٥٧) قال: كانت ليلى بنتُ الحارثِ البَكريّةُ «جالسة عند المسجد الحرام فرأتْ عُمَرَ ابن أبي ربيعة، فوجّهت إليه مَوْلىً لها فجاءها به. فقالتْ له: يا ابن أبي ربيعة، حتى متى لا تزالُ سادراً(لا تبالي بشيء) في حَرَم الله تُشبِّب بالنساء وتُشيدُ بذكرهن؟...».

والظاهرُ أنهمُ اشتقوا التشبيبَ من الشباب لأنه في الحقيقة «يكونُ غالباً في زمن الشباب أو يشتمل على ذِكر الشباب» (تاج١: ٤٨٣).

النسيب خاصة:

ولقد أصاب المرتضى الزَّبيديّ حين نقلَ عن شيخه (تاج١: ٤٨٣) «أن النسيبَ يُطلَقُ على وصفِ مرابع الأحباب ومنازله واشتياق المُحبّ إلى لقائهم ووِصالهم...».

فالنسيبُ، إذنْ، هو بثّ الشوق وتذكُّرُ الأيام الجميلة التي خَلَتْ مَعَ المحبوب وتمنّي عَوْدتها، ثم الشكوى من بُعادِ المحبوب ومن قَسوة قَلبه ومن قسوة الأيام.

ثم إننا إذا راجعنا «بابَ النسيب» في «ديوان الحماسةِ» لأبي تمام، رأينا أبا تمام يختار في هذا الباب نحو خمسمائةٍ وعَشْرةِ أبياتٍ كلُّها في بثّ الشوق وتذكُّر الأيام الخوالي والشكوى، إلا أربعةً وعشرين بيتاً جاءت منثورة في تلك القصائدِ المختارة، ولم يُمكِنْ حذفها لتلاحم المعاني فيها.

ولقد فَطِن إلى ذلك الشيخ أبو زكريا يحيى بن علي التبريزيّ شارح «ديوان الحماسة»، فقال في أول بابِ النسيب: «النسيبُ ذكرُ الشاعرِ المرأةَ بالحُسن، والإخبار عن تصرُّف هواها به؛ وليسَ هو الغزلَ. وإنما الغزل الاشتهارُ بمودات النساء والصبوة إليهن. والنسيب ذكر ذلك والخبر عنه».

٢-تطور الغزل والنسيب

ما دامَ موضوعُ الغزل لا يمكن فصلُه عن موضوع التشبيب والنسيب، فإننا سنعالج تطور الغزل والنسيب والتشبيب أيضاً في فصل واحد، وفي الشعر العربي فقط.

قدم الغزل

الغزل والنسيب موضوعٌ قديم جداً في الشعر العربي لا نَعْرف شيئاً عن بدئه حتى إن الشعر الجاهلي- وهو أقدمُ ما وصل إلينا من نِتاج العرب الأدبي- يمثّل طوراً متأخراً جداً أصبح النسيبُ والغزل فيه موضوعاً تقليدياً، لأنه أصبح يتناول الصِفاتِ الواحدةَ في تراكيب متشابهةٍ[١]. خُذ مثلاً على ذلك لونَ الوجه: يظهر لنا بجلاء أن «البياض» تردّد كثيراً في الشعر الجاهلي وفي صُوَرٍ وتشابيهَ متقاربةٍ برغم أن «السُمرة» هي اللونُ الغالب على العرب[٢]:

---

(١) Enc Isl.(first ed.) III 8567.

(٢) الأبيات للشعراء الآتية أسماؤهم على التوالي: امرؤ القيس، النابغة، عمرو بن كلثوم، طرفة.

- مُهَفْهفةٌ بيضاءُ غيرُ مُفاضةٍ ترائبُها مصقولةٌ كالسَجَنجَلِ[١]
- بيضاءُ كالشمس وافتْ يومَ أسْعدِها لم تُؤذِ أهلاً ولم تُفحِشْ على جارِ[٢]
- ونحْراً مثلَ ضوءِ البدرِ وافَى بإتمامٍ أُناساً مُدلجِينا[٣]
- ووجهٍ كأن الشمسّ ألقَتْ رِداءها عليه نقيُّ اللونِ لم يتخدّدِ[٤]

إننا نرى أن الغزل (أو التشبيب على الأصح) كان قد أصبح في العصر الجاهلي فناً تقليدياً يكاد يكونُ مقصوراً على مطالع القصائدِ.

قلة الغزل:

قد يظُنّ ظانٌّ أن الغزل (التشبيب الخالص) كثيرٌ في الجاهلية. لا ، إن النسيب كثيرٌ، ولكن التشبيبَ الذي هو وصفُ أعضاءِ المرأةِ الظاهرةِ قليلٌ جداً. ويرجع ذلك عندي[٥] إلى سببين : أحدُهما أن «الحجاب» كان موجوداً على شكل ما في الجاهلية، فكانتِ الفُرَصُ التي تُتيح للرجل أن يرى المرأة قليلةً جداً. أما السببُ الثاني فهو كرهُ العرب لذِكرِ صفاتِ نسائهم في شعرٍ يدورُ على الألسنة. أما أدِلّة وجودِ الحجاب، في الجاهلية، من الشعر الجاهلي فكثيرة :

- لم تمشِ ميلاً ولم تركَبْ على جَمَلٍ؛ ولا ترى الشمسَ إلا دونها الكِلَلُ[٦]
- رفعوا القِبابَ على وجوهٍ أشرقتْ فيها فغَيّبتِ السُّهى في الفرقدِ[٧]

---

(١) مهفهفة: ضامرة البطن. مفاضة: مسترخية اللحم (سمنها كثير وقبيح). التربية: الجانب الأعلى من الصدر. السجنجل: المرآة.

(٢) يوم أسعدها: كان القدماء يعتقدون أن في الدهر أيام سعد وأيام نحس. الأهل: الزوج (والزوجة ايضاً). أفحش: أتى بالفحش (القبيح والشنيع) من القول أو الفعل.

(٣) النحر: أعلى الصدر (عند أسفل العنق). وافى (البدر): وصل. بإتمام (نصف الشهر). المدلج: السائر في الليل.

(٤) ألقت رداءها عليه (منحته البياض والنقاء). تخدّد: تشقق (تجعّد).

(٥) جريدة الأحرار بيروت ٥-١٢ -٣١.

(٦) الكلة (بالكسر): ستارة ترفع على الفراش، ستر رقيق النسيج.

(٧) القبة الخيمة الكبيرة (من جلد) تكون للرؤساء والأغنياء. السهى نجم صغير ضئيل النور (لبعده عنا) في مجموعة الدب الأكبر. الفرقد: نجم القطب الشمالي. وجهها غطّى (بنوره وجماله) على جميع الوجوه.

- وقال لها البدرُ المنيرُ: ألا اسفُري، فإنكِ مِثلي في الكمالِ وفي السعدِ[١]

فولّتْ حياء ثم أرْخت لِثامَها ....

-منازلُ تطلُعُ البدورُ بها مُبرقعاتٍ بظُلمة الشَّعْر[٢]

بيضٌ وسُمرٌ تحمي مَضاربَها آسادُ غابٍ بالبِيض والسُمر[٣]

-وإنها كمَهاتِ الجوّ نعمةٌ تُدني النَصيفَ بكفٍّ غير مَوْشومه[٤]

وتبدو محافظةُ المرأة على حِجابها بارزةً في قول النابغة:

سقطَ النصيفُ، ولم تُرِدْ إسقاطهُ، فتناولَتهُ واتّقتْنا باليدِ[٥]

مجال الغزل:

والغزلُ في الحياةِ وفي الشعر ميدانٌ فسيحٌ لا يمكن تَعدادُ وُجوهِهِ ولا حصرُ خصائِصه، فيكادُ كلُّ شيء ينطوي تحتَ «الباعثِ» الحقيقيّ لهذا الغنّ المُهِمّ من فنونِ كلِّ أدب في العالم:

الحبُّ نوعان: نوعٌ ماديّ ونوع روحاني. إن الحبَّ الماديَّ هو المجرى الطبيعي في الحياة؛ أما الحبّ الروحاني فهو قاصرٌ على الشِعر والوعظ وعلى عدد من قصص البطولة القديمة. ويظهَرُ أن هذا الحبّ الروحاني إنما هو روحاني في عدد من مظاهرِهِ فقط، فقد ألّف الأستاذُ موسى سليمانُ كتاباً قيماً في «الحُب العذريّ» قال فيه إن رواياتِ الحبِّ العُذريّ المنسوبة إلى نفر من شعراءِ العصر الأموي رواياتٌ مُلفّقةٌ

(١) سفرت المرأة: كشفت اللثام عن وجهها.
(٢) المنزلة: البرج في السماء. المنازل (يقال لها البروج أيضاً) اثنا عشرة تنتقل فيها الشمس (والقمر أيضاً) في أثناء السنة. مبرقعة بظلمة الشعر (يحيط بوجهها شعر شديد السواد).
(٣) البيض والسمر الأوليان جمع بيضاء وسمراء (من النساء) والأخرين جمع أبيض (سيف) وأسمر (رمح). المضرب (بكسر الراء): الخيمة، المسكن. آساد (جمع أسد): رجال شجعان.
(٤) المهاة: نوع من الظباء مشهورة باتساع عيونها. الجو: المكان المنخفض من الأرض (خصب فيه مراتع للحيوان). النصيف: الحجاب.
(٥) اتقتنا باليد: وضعت كفها على وجهها (كيلا نرى وجهها).

(ص٨٨) وأتى بشواهدَ- من شعرِ هؤلاء- تدل على حُبّهِمُ الماديّ الإنساني. من يَتتبَّع شواهدَ الأستاذ موسى يجده على حق.

والعربيّ قبلَ الإسلام لم يَثُرْ على قانونِ الحياة الطبيعيّ: لقد كان للنساء مركزٌ عظيم في الجاهلية من حيثُ الاجتماعُ والحرية. ولكنّ«الرجلَ» لم يكن يتهيَّبُ «المرأةَ»، بل كان يُصغي حِيالَها إلى عاطفتِه حتى جاء الإسلام فهذّب هذه العاطفةَ وقيّدها، ولكنه لم يَكبِتْها.

ثم يجب أن نذكُر أنّ الحَضَرَ كانوا أكثر انغماساً في الحبّ الماديّ منَ البَدْو، لاتصال الحضَرِ بأهلِ فارسَ وبالروم في السكنى والتجارة؛ وفي ذلك ما فيه من تبادُل الخصائص بين المتجاورين والمتزاورين.

وينذُرُ- في البدو أيضاً- أن نرى شاعراً كالشَّنفرَى يَغمِز قناة المحبّين ويتهكّم بهم[1]، وهو يقول عن نفسِه:

ولا خالفٍ داريّةٍ مُتغزّلٍ يروحُ ويَغدو داهناً يتكحّلُ[2]

ويفسر الأستاذ الدكتور يوسف هل(١٨٧٥ -١٩٥٠)[3] هذا الفرقَ بين نوْعَي الغزلِ بأن عدداً من الخصائص الغريبةِ قد تسرَّبت إلى الغزل العربي خاصة. ويستدِلُ على ذلك بأن هذه الخصائصَ نفسَها قد عادت فانتقلت من الشعر العربي إلى الشعر الأوروبي بسهولة، فيما بعدُ.

(١) Vgl. Ahlward, Bemerk.23

(٢) الخالف. الذي لا خر فيه. داري: الذي لا يبارح المنزل حباً بالقعود مع النساء. المتغزل: المتحبب إلى النساء. الداهن: الذي يمسح جلده وشعره بالدهن، أي بالزيت والطيب.

(٣) Arabische Dichtung. Vgl.5,9 -10.

٢- الغزل والنسيب في الجاهلية

التشبيب: صفات المرأة:

كان أكثرُ حُبّ الجاهليين في المدن والقُرى ماديّاً، فلقدِ انكشف شِعرهم عن ذلك. ألَمْ يقُل طَرَفَةُ بنُ العَبدِ:

وتقصيرُ يومِ الدَجْنُ والدَجْنُ مُعجِبٌ ... ببكهنةٍ تحتَ الخباءِ المعمَّدِ[١]

وقد قال مثلَ ذلك الأعشى وعَبيدُ بنُ الأبرصِ وامرؤُ القيسِ والمرقّش وغيرُهم. من أجلِ ذلك كانت أوصافُ الجاهليين للمرأة تؤكّد النظرة الماديّة في اللّهْو.

(أ) أحَبْ الجاهليون أن تكون المرأةُ معتدلةِ القامة مستقيمةَ القدّ بدينةً، ولكن نحيفة الخصر، يدُلّنا على ذلك ما قالوه[٢]:

- ما شانَها طُولٌ ولا قِصَرٌ، ... فقيامُها وقُعودُها قصْدُ[٣]

- فَهْيَ هَيْفاءُ هَضيمٌ كشحُها ... فخمةٌ حيثُ يُشدُّ المؤتَزَرْ[٤]

وهي بَدّاءُ إذا ما أقبلتْ ... ضخمةُ الجِسمِ رَداح هَيْدكُرْ[٥]

- وإن هي قامتْ في نساءٍ حَسِبْتَها ... قناةً أُقيمتْ في قَناً قد تأوَّدا[٦]

---

(١) يوم الدجن (الغيم،المطر): اليوم البارد الممطر. والدجن معجب (كثير يتعجب منه الناظر إليه؟). البهكنة: المرأة السمينة الحسناء. الخباء (الخيمة) المعمد (المرفوع على عمود لاتساعه وكبره لأنه للرؤساء والأغنياء).

(٢) الأبيات التالية للشعراء الآتية أسماؤهم على التوالي: صاحب اليتيمة، المرّار بن المُنقذ العدوي (بفتح ففتح)، معن بن أوس.

(٣) شانها: عابها (جعلها قبيحة). قصد (باعتدال).

(٤) هيفاء: قوامها نحيف. هضيم (نحيل) كشحها (أوسط جسمها) فخمة (عظيمة، ضخمة) حيث يشدّ المؤتزر أو الإزار (أي بين خصرها وركبتها).

(٥) بدّاء: متسعة ما بين الفخذين (بفتح فكسر) لكثرة لحمها. رداح: كبيرة الإليتين، هيدكر: كثيرة اللحم.

(٦) القناة: القصبة، الرمح. قنا قد تأوّدا (قصبات مائلات. تتمايل)«بينما هي مستقيمة».

وكذلك المُخلخَلُ (أدنى الساق، حيثُ يُلبَسُ الخَلخالُ) أحَبّه العربُ ريّانَ مُمتلِئاً لحماً. قال امرُؤ القيس:

هَصَرْتُ بفوْدَيْ رأسِها فتمايلتْ عليّ هَضيمَ الكشح ريّا المخلخَلِ[١]

(ب) وأحبّ شعراءُ الجاهلية أن يكونَ شَعْرُ المرأةِ أسودَ حالكاً كالليل، جَعْداً وافراً كثيفاً مجدولاً ضفائرَ مختلفةً، يجمع ذلك كلَّه تقريباً قولُ امرىءِ القيس في مُعلّقتهِ:

وفَرْعٍ يَزينُ المتنَ أسودَ فاحمٍ أثيثٍ كقِنوِ النخلةِ المتعثكِلِ[٢]

غدائرُها مُستشزراتٌ إلى العُلى تَضِلّ العِقاص في مُثنّىً ومُرسَلِ[٣]

يقول: شعرُها الأسود الكثيف الجعد(كقُرْطِ البلح المُجَرَّدِ من ثمره) يَزينُ ظهرَها إذ يتدلّ عليه كلِّه. أما ضفائرُها فمرتفعةٌ إلى العَلاء تكثُرُ فيها الأمشاط التي تضُمُّ الشَعْرَ على أشكالٍ مختلفة.

(ج) وليس بغريبٍ أنّ يوليَ الشعراءُ لونَ الوجهِ اهتماماً خاصاً. العربُ سُمْرُ الوجوهِ، ولذلك أحبّوا السُمْرةَ في نسائِهم، إلا أنهُمُ اشترطوا أنْ تكونَ تلك السُمرة صافية لا كلَفَ (بُقَع) فيها. وعلى هذا قولُ زهيرٍ:

وأما ما فُويقَ العِقْدِ منها فمِن أدماءَ مرتَعُها الخلاءُ[٤]

وكذلك قال عنترةُ:

وقد كنتَ تخفي حبَّ سمراءَ حِقبةً[٥] ..بائحُ.

غير أن العربَ أحبوا البياضَ في الوجهِ وأحبوه ممزوجاً بشيء من الصُفرة.

---

(١) هصر الرجل الغصن: تناوله فخفضه ليقطف ما عليه من الثمر. الفود: الشعر عند الأذن.

(٢) فرع: شعر يزين المتن (الظهر): طويل. أثيث. متعثكل: مجعّد.

(٣) الغدائر: الضفائر: خصل الشعر المجدولة، مستشزرات: مرتفعات (لها أشكال مختلفة). العقيصة: الخصلة من الشعر. المثنى: المطويّ. المرسل: المطلق، المتدلي.

(٤) الأدماء: (الظبية) السمراء اللون. ما فويق العقد (الوجه؟).

(٥) حقبة: مدة من الزمن.

قال امرُؤ القيس:

كبِكر المقاناة البياضُ بصُفرةٍ غَذاها نميرُ الماء غيرُ المُحلّلِ[١]

وقال المرّارُ بن منقذٍ العَدَويّ:

عَبِقَ العنبرُ والمِسْكُ بها، فهي صفراءُ كعُرجونِ العُمُرْ[٢]

ولا ريب في أن العرب قد عَرفوا هذا الجمال الذي يمازج بياضُه شيءٌ من الصُفرة من اليونان، إذ هو لون اليونان.

أما الوجهُ فالغالب على ذَوْقِهم فيه أنْ يكون أسيلاً (طويلاً مُسترسِلاً أمْلسَ).

(د) وأينما وصِفَتِ العيون في الشعر الجاهلي، فإنها كانت توصَف بالسَعَة وتُستعار من بَقر الوحش(نوعٍ من الغِزلان)، قال امرؤ القيس:

تَصُدّ وتُبدي عن أسيلٍ وتتّقي بناظرةٍ من وحشِ وَجْرةَ مُطفِلِ[٣]

أما عنترةُ فجمع خمسَ صفاتٍ للعين في بيت واحد:

أغنُّ مليحُ الدِّل أحورُ أكحلٌ أزجُّ نقيّ الخدّ أبلجُ أدعجُ[٤]

فالحَوَرُ شِدّة بياضِ بياضِ العين وشِدْة سوادِ سوادها، وأما الكحَل فالسوادُ في

---

(١) كبكر المقاناة (كالبيضة الأولى التي تضعها النعامة اختلط فيها الصفرة بالبياض والبيضة الأولى تكون ناعمة لينة؟). البياض (يجوز فيها الرفع والنصب والجر) بصفرة (مخلوطة بلون أصفر) وكان العرب يحبّون هذا المزيج من اللونين في الوجه. النمير (الصافي). غير المحلل (الذي لم ينزل قربه أشخاص فيكدروه). والماء الصافي النقيّ أحسن للصحة (بكسر الصاد).

(٢) العرجون: العنقود الذي يكون فيه التمر من النخيل. العمر (بالفتح أو بفتح ففتح أو بالضم وتكون أيضاً بضمتين) أماكن في بلاد العرب.

(٣) تصدّ (المحبوبة): تعرض، تميل عني. تنفر (بكسر الفاء) مني. فإذا أدارت وجهها عني أبدت (أظهرت) خدّاً أسيلاً (طويل الصفحة). تنقي (تحترس مني) بناظرة (بعين) من وحش وجرة (اسم مكان) مطفل (ذات طفل): تنظربعين غضبي كما تنظر الغزالة إلى رجل تخاف أن يسلبها صغارها.

(٤) أغنّ: رخيم الصوت. الدلّ: الغنج، شعور المحبوب بمكانته عند المحب. والكلمات الباقيات مشروحة في المتن).

منابتِ الأهداب (الشعر في الجفون)، والزَجج دِقة الحاجبين مَع طولٍ، والبلَج بياض ما بين الحاجبين، والدعَج سَعَة العين مع سواد بؤبؤها.

إلّا أن نفراً من الجاهليين أحبّوا المرأة وَطْفاءَ (كثيفة شعر الحاجبين).

(هـ) والأنف المحبوب في الجاهلية كان الأنف الأقنى (الطويل غير القصير، المرتفعَوسَطَ القَصبة، الضيف المِنخَرين) قال مَعْن بنُ أوسٍ:

وأقْنى كحدّ السيفِ يشربُ قبلَها

(و) ولقد كان الفمُ مَحَطّ عناية شعراء الغزل في جميع العصور، وكذلك كان شأنهُ في الجاهلية.

فالشفتانِ يجب أن تمتازا بالرِّقّة والحُوّة (السمرة). أما الأسنان فيجب أن تكون رقيقة بيضاء واضحة مؤشّرةً (ظاهرة الخطوط لنظافتها) متفرّقة قليلاً غير متراكِبة.

وأما اللّثَةُ فيجب أن تبدوَ وَرْديّةً كالرمل الخالص نديّةً، وأن تكون طيّبةَ الرائحة عَذبة الريق؛ يصوّر ذلك كلّه قولُ المرقّش الأكبر:

وذو أشَرٍ شتيتُ النَبْتِ عذْبٌ نَقيّ اللونِ برّاقٌ بَرودُ[1]

ويزيد عليه شيئاً قولُ طَرَفة:

وتبْسِمُ عن ألْمى كأنّ مُنَوّراً تخلّلَ حُرّ الرمل دِعصٌ ندي[2]

يقول: تنفرجُ شفتاها السَمراوانِ عن أسنانٍ بيض كأوراق زهر الأقحوان المغروسة في تلةٍ نديّة (رطبة) من الرمل الأحمر الخالص.

(ز) أما العُنُق والنَحْر (أعلى الصدر) فلونهما طبعاً لونُ الوجه. وأما العُنق خاصةً

(١) برود: بارد.
(٢) اللمى: السمرة في الشفاه.النديّ: الرطب (إذا جفّ فم الإنسان ظهرت له رائحة كريهة. ولا يكون الجفاف في الفم إلا لاضطراب في الجهاز الهضمي أو من اضطراب الكبد).

فيجب أن يكون طويلاً، ولكنْ غيرِ مُفرِطٍ في الطول. قال امرؤ القيس:

وجيدٍ كجيدِ الرِئم ليس بفاحشٍ إذا هيَ نصّتْه ولا بمُعطّلِ[١]

فالجيدُ هو العنق، والرئم هو الظَبْي الأبيض، والفاحش الشديد الطولِ. وأما في النحْر خاصة فقال عمرو بنُ كلثوم:

ونَحْراً مثلَ ضوءِ البدرِ وافى بإتمامٍ أناساً مُدْلِجينا[٢]

وإذا نحن أحْبَبنا أن نعْرِف وصفَ سائرِ أعضاء المرأة فيجب أن نعودَ مرةً ثانية إلى مُعلقةِ عمرو بن كلثوم، ثم ننتقل إلى قصيدة النابغةِ الذُبياني في المُتجرّدةِ امرأةِ النُعمان.

***

ويحسُن أن نشير هنا إلى أن الجاهلياتِ عَرَفْنَ التطْرِيَة: عَرفْنَ التزجيج (ترقيق الحواجب)، والتكحُّل (وضعَ الكحل عند منابت الأهداب في الجفون)، والتعنيم (صبغ الأظافر- أو رؤوس الأصابع كلها بالعَنَم لِتصبح حمراً)، وحفَّ اللِّثَة بالأثِمِدِ (حَجَر الكُحل ليَجْعلنها سمراء). وعَرَفن الوَشْم أيضاً، ولكن يبدو أن الوسامة (الجمال الطبيعي) كانتْ أحبّ إلى العرب من الوَشْم (تزيين الوجهِ خاصة بأشكال زُرق). قال عَبيدُ ابن الأبرص:

فيهن هِندُ التي هام الفؤادُ بها بَيضاءُ آنسةٌ بالحُسنِ مَوْسومهْ[٣]؛
وإنها كمَهاةِ الجوِّ ناعمةٌ تُدني النصيف بكفٍّ غير مَوْشومهْ[٤]

---

(١) الجيد: العنق. الرئم: الغزال الأبيض. فاحش: كثير الطول.نصّته: رفعته (مدَّته). معطل: ليس مزيناً بالحلى.
(٢) راجع ص ٢٢، الحاشية٣.
(٣) آنسة: يأنس الإنسان بها (يسر بقضاء الوقت معها) الحسن (يكون في لون الوجه).موسوم: جميل، عليه علامات الجمال.
(٤) راجع ص٢٣، الحاشية٦.

النسيب الجاهلي:

يكثُر النسيبُ عند الشاعر إذا اتّصف بإحدى صِفتيْن مُتناقِضتين: أنْ يكونَ غَزِلاً أصبحتِ المرأة شغلَه الشاغلَ فلا يستطيع الكلام إلّا عنها كعُمَر ابن أبي ربيعة، أو أن يكون محروماً لسببٍ من الأسباب يتشوّق إلى ما لا تَمِلك يمينُه، كنفرٍ من الشعراء العُذريين.

والنسيبُ الصحيحُ قليلٌ في الجاهلية. ولكنّ النسيب التقليديّ كان كثيراً.

يأتي هذا النسيبُ التقليديُّ في مطالعِ القصائدِ عادةً ويدورُ حولَ ثلاثةِ أمورٍ هي:

(أ) الوقوف على الأطلال:

الأطلال هيَ الآثارُ التي تبقى في الأرض بعد نزعِ الخيام ورحيل الذين سكنوا تلك الخيام.

يتعوّد الشاعر أن يزورَ حبيبته في منزلٍ (مكان تخيّم فيه القبيلة). ثم يأتي ذاتَ يوم فيرى أن القبيلة قد «رحَلتْ»، فيَقِفُ هو على أطلال القبيلة يَصفها وصفاً قصيراً أو طويلاً لأنها شهدتْ حبيبته من قبلُ، كما فعَل النابغةُ في إحدى مُعلقتيْه:

عُوجوا فحيّوا لِنُعْمٍ دِمنةَ الدار؛ ماذا تحيّون من نُؤيٍ وأحْجارِ[1]؟
أقوى وأقفرَ من نُعْمٍ وغيّره هُوجُ الرياح بهابي التُّرْبِ مَوّارِ[2]
وقفتُ فيها، سَراةَ اليوم، أسألها عن آلِ نُعمٍ أموناً عِبرَ أسفارِ[3]

(١) عاج: مال، عطف (ليأتي إلى مكان مقصود). الدمنة: الطلل: مكان كان فيه خيمة منصوبة. النؤي: خندق حول الخيمة يمنع دخول الماء إليها.

(٢) أقوى: خلا. أقفر: أصبح قفراً لا نبات فيه ولا ساكن. هوج (جمع هوجاء) الرياح: الرياح العاصفة. هابي الترب (ريح سافية: تحمل التراب من مكان إلى آخر). موّار: متردد (يجيء ويذهب) يهبّ طرداً وعكساً.

(٣) سراة: أعلى. سراة اليوم (أواخر النهار). أموناً (مفعول به من «وقفت»): ناقة قوية مأمونة لا تعثر ولا تفتر. عبر أسفار: تعوّدت السفر.

فاستعْجَمتْ دارُ ما تُكلّمنا والدارُ لو كلّمتْنا ذاتُ أخبار[١]
وقد أراني ونعْماً لاهيَيْنِ معاً، والدهرُ والعيشُ لم يهمُمْ بإمرارِ[٢]
أيام تُخبرُني نُعْمٌ وأخبِرُها ما أكتمُ الناسَ من حاجي وأسراري

ولا حاجةَ بنا إلى زيادة الاستشهاد على النسيبُ في أثناء وصفِ الأطلال فإنه كثيرٌ ظاهرٌ في الشعر الجاهلي.

(ب) وصفُ الظعائن:

الظعائن هي الإبل التي تحمِلُ النِساء حين تنتقلُ القبيلةُ من منزل إلى منزل.

من حقِّ وصف الظعائن أن يكونَ تابعاً لوصفِ الأطلال، لأنه يأتي بعدَه مُباشرة. إلا أن وصف الظعائن قد يكون أحياناً بالذِكرى فقط. إنّ زهيرَ ابنَ أبي سُلمى قد تذكّر امرأتَه أمّ أوْفى بعد أن طلّقها بعشرين سنةً. ومَع ذلك فقد وصَف الظعائنَ التي حَمْلنا مَعَ صواحِبها وصفاً دقيقاً. قال:

تبَصَّرْ، خليلي، هل ترى من ظعائن تحَمَّلنَ بالعَلياء من فوق جُرْثمِ[٣]؟
جعَلْن القَنانَ عن يمينٍ وجُزْنَه وكم بالقنانِ من مُحِلّ ومُحْرِم[٤]!
عَلوْنَ بأنماطٍ عِتقاً وكِلّةٍ وِرادٍ حواشيها مُشاكهةِ الدَمِ[٥]

---

(١) استعجمت: سكتت، عجزت عن الجواب.
(٢) لم يهمم (لم يعزم، لم يبدأ) بإمرار (من "أمرّ" أصبح كرّاً): قبل أن أصبح عيشنا مرّاً بالفراق.
(٣) العلياء= العالية: الأرض المرتفعة. جرثم: ماء (نبع). تحمّل القوم: جعلوا أحمالهم على الإبل (للرحيل: السفر والانتقال).
(٤) القنان جبل: جزنه= جاوزنه. مررن به (في الرواية: حزنه بفتح الحاء المهملة: الأرض الصعبة الحجرية). المحل: الساكن في المكان دائماً (أو الراجع من الحج). المحرم الساكن في المكان مؤقتاً (أو الموجود في الحج). والرواية تفسر ذلك بأن الشاعر زار ذلك المكان في أيام الحج وفي غير أيام الحج.
(٥) علون بأنماط (جمع نمط - بفتح ففتح - نسيج ثمين يفرش في البيوت. يقول: جعلن على الهوادج أنماطاً لرد الشمس وللزينة) الأصوب أن يقال: سافرن في هوادج ثمينة. العتيق: القديم، الكريم، الجيّد. الكلّة: الستار. وراد (جمع «ورد»: أحمر). مشاكهة: مشابهة.

بَكَرْنَ بُكوراً واسحرْنَ بسُحرةٍ فهنَّ ووادي الـرمـلِ كـاليدِ في الـفـمِ[١]
وفيهنّ ملهىً للصديق ومنظرٌ أنيقٌ لعينِ الناظرِ المتوسّمِ[٢]
فلمّا وَرَدْنَ الماءَ زُرقاً جِمامُه وَضعْنَ عِصِيّ الحاضرِ المتخيِّمِ.[٣]

(جـ) ذكرُ الطيف أو الخيال في المنام:

إذا حَدَس الإنسانُ في نهاره بشيءٍ أو تمنّاه، ثم كبته في نفسِه، لم يُخبرْ به أحداً، فالأغلب أن يراهُ مُعاداً ومُحقّقاً في نومه.

هذا هو أساس الأحلام الأول. وقد كان هذا التعليلُ معروفاً نجدُ تفصيله عند إخوان الصفا وعند الفارابيّ (ت٣٣٩هـ=٩٥٠م)، ولا ريبَ في أنّ اليونانَ قد عَرفوه أيضاً. ولعلَ علمَ النفسِ الحديث لم يفعل في ذلك أكثر من تنظيمِ المعارفِ القديمة في هذا الشأن، ثم تطرّف في التعليل والتأويل. إنّ الشاعرَ الجاهليّ زهير بن أبي سُلمى أدرك هذا الأساس بتفاصيله، حينما قال في امرأته ليلى أمّ أوْفى (كمهرة أشعار العرب):

تذكّرني الأحلامُ ليلى، ومَن تُطِفْ عليه خَيالاتُ الأحِبّةِ يحلُمِ

وقال المُرَقّش الأكبر:

سرى ليلاً خَيالٌ من سُليمى فأرّقني وأصحابي هُجودُ

والكلامُ على الأحلام والخيالِ والطيْفِ كثيرٌ في الجاهلية.

وتفنّن الجاهليون في ذِكْرِ الطيْفِ حتى ذكروا أحلام اليَقَظة. إنّ العقل إذا أكثر التفكير في شخصٍ خُيّل إليه أنه يبصره وهو يَقظان، يمُرّ أمامَه كلمْحِ بالبصر. ولا ريب

(١) بكّرْن في سفرهن (منذ العصر)، فلما أقبل السحر (قبيل الفجر) كن قد وصلنا إلى مقربة من وادي الرس (كاليد في الفم).

(٢) أنيق: جميل تستحسنه العين. المتوسم: المتطلع بعناية.

(٣) وردن الماء (وصلن إلى الماء) زرقاً جمامه (أطرافه) صافية، لم ينزل بعد أحد على هذا الماء.

في أن الليلَ يُعينُ على ذلك (للهدوء المسَيْطر فيه) أكثرَ من النهار[١]. وذلك قول النابغة:

أقولُ، والنجمُ قد مالتْ أواخِرُه   إلى المغيبِ: تثبتْ نظرةً، حارِ[٢]:
ألمحةً من سَنا يرق رأى بَصري   أمْ وجه نُعْمٍ بدا لي، أم سنا نار[٣]؟
بلْ وجهُ نُعمٍ بدا والليلُ مُعْتكِرٌ   فَلاحَ من بينِ أثوابٍ وأستار!

النسيب التقليدي والنسيب الأصيل:

نَقصِد بالنسيب التقليديّ ذلك النسيبَ الذي لا يُعبِّر عن شعورِ قائلهِ الخاصّ، بل يَرْوي أقوالاً مأثورة عامة في تراكيبَ خاصةٍ لا يختلفُ بعضُها من بعض اختلافاً ظاهراً إلا في تلك التراكيبِ أحياناً. أما المعاني فهي مكرورةٌ في القصائد المختلفة عند الشعراء المختلفين. وهذا النسيب التقليدي يأتي عادة في مطالع القصائد ولا يمكن أن يكون في مُقطّعاتٍ مستقلة، ذلك أنه ليس الغرضَ الأساسيّ من القصيدة، ولا هو مقصودٌ لنفسه.

أمّا النسيب الأصيل فيأتي مستقلاً ويأتي في أثناء القصائدِ أيضاً. فمما جاء في أثناء القصائد قولُ امرىءِ القيس في مُعلّقته يذكر يوماً قضاه معَ ابنةِ عمِهِ عُنيزةَ (فاطمة):

ويومَ دخلتُ الخِدرَ خِدرَ عُنيزةٍ،   فقالت: لك الويلاتُ، إنك مُرجلي[٤]
تقولُ، وقد مال الغبيطُ بنا معاً:   عقرْتَ بَعيري، يا أمرَأ القيس فانزل[٥]
فقلتُ لها: سيري وأرْخي زِمامَه،   ولا تُبعِديني عن جَناكِ المُعلَّل[٦]

---

(١) في القاموس المحيط (٣٧٣: ٣): الخيالة (بالفتح) ما تشبّه لك في اليَقظة والحُلم من صورة.
(٢) حار: ترخيم حارث. النجم بعض النجوم.
(٣) سنا: الضوء الساطع.
(٤) الخدر: بيت المرأة (والمقصود هنا: الهودج على ظهر الجمل). مرجلي: مجبري على النزول والمشي (وقيل: إنك ستفضحني بين الرجال).
(٥) الغبيط: الرحل (بالفتح): سرج الدابة (هنا الهودج). عقر: جرح.
(٦) الزمام: الرسن، القياد. الجنى: الثمر. المعلل: الذي يؤخذ (يشرب، مثلاً) شيئاً بعد شيء (لا تبعديني عن تمتعي بك).

أفاطِمَ، مَهلاً: بعضَ هذا التدلُّلِ، وإنْ كنتِ قد أزْمعتِ صُرْمي فأجْمِلي[١]
أغـرّكِ مِـنّي أنّ حُـبّـك قـاتِـلي وأنك مَهْما تأمُري القلبَ يفعَلِ»

ومثلُ ذلك قولُ المُنخّلِ بنِ الحارث اليَشكُريّ يذكرُ ما أثار عاطفته يومَ لقِيَ محبوبتَه، فقال يتغزَّل ويَنسِب معاً:

ولـقـدْ دخـلْـتُ عـلى الـفـتـا ةِ الخِـدرَ، في اليومِ المَـطـيـر،
الـكـاعـبِ الحـسـنـاءِ تـر فُـلُ في الـدِمَـقْـسِ وفي الحـريـر[٢]
فـدفـعـتـهـا فـتـدافـعـت مَـشْيَ الـقـطـاةِ إلى الـغـديـرِ
ولَـثـمْـتُـهـا فـتنفّـسـت كـتنفُّـس الـظَـبْـيِ الـغـريـرِ[٣]
فـدنَـتْ وقـالـتْ: «يـا مُـنـخَّـلُ، مـا بجِـسْـمِـك مـن حَـرور!»[٤]
«مـا شـفّ جِـسـمـي غـيرُ حُـبّـكِ فـاهْـدأي عَـنّي وسيري»[٥]
وأحِـبُّـهـا وتُحِـبّني، ويُحِـبّ نـاقـتَـهـا بـعـيري!

٤- الغزل والنسيب في صدر الإسلام

النسيب فن إسلامي.

حينما جاء الإسلامُ نهى عن سيئاتٍ كثيرة من سيئات الجاهلية. من هذه السيئات «الغزل» بمعنى أنه صِلةٌ غير مشروعة بين الرجل والمرأة، وبمعنى وصفِ هذه الصلة في

(١) بعض هذا التدلل: افعلي شيئاً قليلاً من هذا الدلال فقط (لا تبالغي في التمنع عني). صرمي: قطعي (هجري، مفارقتي). أجملي: (افعلي ذلك) بطريقة جميلة (لائقة).

(٢) الكاعب: الفتاة إذا كعبت (بفتح ففتح): نهد (فتح ففتح: علا) واستدار نهدها (في أول صباها). ترفل: تلبس ثوباً طويلاً تسير به متبخرة تتمايل. الدمقس: ثوب منسوج بالحرير (والقطن).

(٣) الغرير: الجميل.

(٤) ما جسمك من حرور: ما أشدّ الحرارة في جسمك.

(٥) شفّ: أمرض وأنحل.

الشعر. إن معنى ذلك أن الإسلام قد وضَع قيداً جديداً على الباعثِ الجنسي في البشر. من أجل ذلك قلّ الغزل وكثُرَ النسيب.

وجاء القرآن الكريم بلغةٍ عذبة وأساليبَ طيّعاتٍ ورقّةٍ وطمأنينة، فأثّر ذلك كلُّه في الحياة والأدب والشعر أيضاً، فأصبح الغزلُ والنسيبُ أرقَّ وأحلى.

ولكن ما كادَ الشاعرُ المسلمُ يبدأ بإلقاء الأسلوب الإسلامي للعَذْب على المعاني الجاهلية ويخرُج بأدبٍ جديد يستهوي النفوس، حتى قام الإسلام نفسُه فمنَع هذا الغزل الذي يَصرف المسلمينَ عنِ الاطمئنان في الحياة ويتناول الأعراض بذكرٍ لا يليق في العُرف الاجتماعيّ. ولقد فعلَ الإسلام ذلك خشية أن تستيقظَ حمية الجاهليةِ من جديد.

أسلم فُضالةُ بنُ شريكٍ اللّيثيّ بعد فتحِ مكة، ورأى ذاتَ يوم فتاتَه التي كان يُحادثها قبل إسلامه فدَعتْه إلى «الحديث» فأنشَدَ:

قالتْ: هَلُمّ إلى الحديثِ، فقلتُ: لا، يــأبي عــليّ الــلـــهُ والإســـلامُ[1]

غيرَ أن العاطفة البشرية عادت إلى البُروز شيئاً فشيئاً إلى أن كانتْ أيام عمرَ بنِ الخطاب فاشتدّ بروزُها. حينئذٍ تقدم[2] عمرُ بن الخطاب، رضيَ عنه، إلى الشُعراء ألا يُشبّب أحدٌ بامرأة إلّا جَلَده. فقال حُميدُ بنُ ثورٍ (يُكْني عن محَبوبتهِ السَرْحة-الشجرة الطويلة):

أبى الـلـــهُ إلّا أن سَرحــةَ مــالــكٍ عـلى كـلُ أفـنـانِ الـعَـضـاهِ تَـروقُ[3]
فقد ذهبتْ عَرضاً، وما فوقَ طولها مــن الـسَّرْحِ إلّا عَـشَّــةٌ وسَـحــوقُ[4]
فلا الظِّلُّ من بَرْدِ الضُّحى تستطيعُه، ولا الـفـيءَ مـن بَـردِ الـعـشيّ تَـذوق[5]

---

(١) راجع تاج العروس ٦٢ : ٨؛ أسد الغابة ١٤٩ : ٢؛ ابن هشام ٨٢٥.
(٢) الأغاني ٤ :٣٥٦-٣٥٧، الإصابة ١ :٨٣١-٨٣٢.
(٣) الأفنان جمع فنن: الغصن. العضاء جمع عضاهة: شجرة عظيمة. تروق: تزيد في الحسن والبهاء.
(٤) العشة: الشجرة القليلة الأغصان والورق. السحوق: المفرطة في الطول من غير تناسب.
(٥) الظل: احتجاب الشمس أول النهار. الفيء: احتجاب الشمس بعد الزوال (بعد نصف النهار).

فهل أنا إن علّلتُ نفسي بسَرْحةٍ من السَرْحِ موجودٌ عليّ طريق؟

والعصرُ الإسلاميُ، أو عصرُ صدرِ الإسلام، يُقسَم- على ما هو معروفٌ- قِسمين: دولةَ ألخلفاء الراشدين ودولة بني أُمَيّة.

في أيام بني أُميّةَ بلغَ النسيبُ في الشعر العربي ذِروتَه في أنواعِه كلّها: كان ثمّةَ غزَلٌ ومُجون، وكان ثمة نسيبٌ، وكان ثمة تشبيبٌ. إن النسيبَ التقليديَّ كان قدِ انحدر أيضاً من الشعر الجاهلي إلى الشعر الأمَويّ لم يتبدّلْ ولم يتغير. ونحبُّ أنْ نَصْرِفَ أولاً هذا النسيبَ التقليديّ بكلمة موجزة.

احتفظتِ القصيدة الأموية عموماً بشكلِها الجاهليّ، وبهذا بقي النسيبُ التقليديَّ في هذه القصائد فناً تقليدياً. وهو يبدو واضحاً في قصائدِ المديحِ والهجاء، وفي النقائضِ خاصة.

كانت النقائضُ أهاجِيَ في الدرجةِ الأولى ومفاخرَ أيضاً ومدائح أو مَراثِيَ أحاناً. ولقد دَرج شُعراء المناقضاتِ على أن يقدِّموا مناقضاتِهم هذه بالنسيب، ذلك لأن الغزل غَرَضُ من أغراض القصيدة الجاهلية توارثَهُ الشعراء. ولقد كان هذا النسيبُ أحياناً عذباً حتى عند من لم يشتهرْ بعذوبة نسيبِهِ كالفرزدق مثلاً، فإنه قال:

رأيتُ نَوارَ، قد جَعَلتْ تَجنّى وتُكثِرُ لي الملامةَ والعِتابا[1]
وأحدثُ عهدِ ودّكِ بالغواني إذا ما رأسُ طالِبهِنّ شابا[2]
فلا أستطيعُ ردَّ الشيبِ عني، ولا أرجوا مَعَ الكِبَرِ الشبابا
فليتَ الشيبَ يومَ غدا عَليْنا إلى يومِ القيامة كان غابا

ومعَ عُذوبةِ مثل هذا النسيب فإنه لا يُعبِّر عن شعور قائله، نَعْرِف ذلك من

(١) نوار: امرأة الفرزدق. تجنّى = تتجنى (عليّ): تنسب إليّ ذنوباً، تتهمني بلا حق.

(٢) الغانية: المرأة الجميلة المستغنية بجمالها الطبيعي عن التزيّن بالحليّ. أحدث عهد ودّك بالغواني: آخر مرة تبدي الغواني ميلاً نحوك هو أول مرة يرين (بفتح ففتح فسكون ففتح) في رأسك شعرة بيضاء.

موقف الفرزدق من النساء ثم من خصائص شعره. ومع ذلك فإن شعراء الغزل الرقيق حينما أتَوْا بالنسيب في مَفاتِح قصائدهم لم يكن نسيبُهم هذا مُعبّراً عن شعورهم أيضاً، بل كان ترديداً للمعاني الجاهلية الأولى، في تراكيبَ ربما كانت إسلامية وربما لم تكن، كقول جَرير:

عوجي علينا واربَعي، رَبّة البَغلِ؛ ولا تقتليني، لا يَحِلُّ لكم قتلي[١]
أعاذِلُ مهلاً بعضَ لوْمِكَ في البُطل؛ وعقلُك لا يذهَب، فإنّ معي عقلي[٢]،
ففإنك لا تُرضي، إذا كنتَ عاتباً؛ خليلَك إلّا بالمودّة والبذل
أحقاً رأيتُ الظاعنين تحمّلوا من الغَيل أو وادي الوريعة ذي الأثل[٣]
ليالي إذ أهلي وأهلُكِ جيرةٌ وإذ لا نخاف الصُّرم إلا على وصل[٤]
خليليَّ، هيجا عَبرةً أو قِفا بنا على منزلٍ بين النقيعةِ والحبل[٥]
فإني لَباقي الدمع، إن كنتَ باكياً على كلّ دارٍ حَلّها مرةً أهْلي[٦]
تُريدين أنْ نرضى وأنتِ بخيلةٌ، ومَنْ ذا الذي يُرضي الأحبّاءَ بالبخل؟
لَعَمْرُكَ لولا اليأسُ ما أنقع الهوى، ولولا الهوى ما حنّ من والِهٍ قبلي[٧]
سقى الرملَ جَوْنٌ مستهلٌ رَبابُه؛ وما ذاك إلا حبُّ مَن حلّ بالرمل[٨]

ولم يقتصرْ هذا النسيبُ التقليديُّ على الشعراء من أصحابِ النقائض والآخذين بأسباب المديح والهجاء للتكسُب، بل كثُر أيضاً في شعر الشعراء الذين عُرفوا بالنسيب

(١) عاج: مال،عطف نحو مكان ما. ربع أقام، سكن (البيت،الخ).
(٢) العاذل والعذول: الذي يلوم الآخرين. بعض لومك (لا تبالغ في اللوم). البطل (الكذب، الباطل الذي لا حقيقة له).
(٣) الغيل ووادي الوريعة: أسماء أماكن. الأثل: شجر صحراوي طويل مستقيم.
(٤) لا نخاف الصرم (التفرّق، الوداع) إلا على وصل (وعد بزيارة ولقاء).
(٥) عبرة: دمعة. النقيعة والحبل موضعان.
(٦) إنني سأظل أبكي على كل مكان سكنه أهلي من قبل (ثم رحلوا عنه).
(٧) أنقع (بالبناء المجهول؟) الهوى: هدأ،نسيه صاحبه (؟). الواله: الشديد الحزن من الحب.
(٨) الجون: السحاب الأسود (لكثرة ما فيه من الماء). مستهلّ: منهمر، ممطر. الرباب: الغيم.

للنسيب ككُثيِّر بن عبد الرحمن الخُزاعيّ المعروفِ بكثيِّر عَزَّةَ، فإنه قد بدأ قصيدةً بنسيب تقليدي في فتاةٍ اسمُها سُعدى، مَع أنه يذكُر في هذه القصيدة نفسِها حبيبتَه عَزة:

أبـائِـنـةٌ سُـعـدى؟ نَـعَـمْ سـتـبـينُ كما انْبَتَّ من حبلِ القَرين قرين[1]
أإن زُمَّ أجمـــالٌ وفـــارقَ جِـيرةٌ، وصاحَ غرابُ البين، أنتَ حزين[2]؟
كـأنـك لم تـسـمَـعْ ولم تـرَ قبلَـهـا تـفــرُّقَ ألآفٍ لهـنَّ حَـنـين[3]
كـأني، وقـد جـاوزتُ بُـرقَـةَ واسـطٍ وخلَّـفـتُ أحـواضَ الـنـجـيـل، طعـين
وهـاجَ الهـوى أظعـان عَزّة غُـدوةً، وقـد جَـعَـلَـتْ أقـرانُهـن تَـبـين[4]

وكذلك فعل عمر ابنُ أبي ربيعة الذي اشتهر بالغزل الصريح، وبأنه جعل الغزل «فنّاً» قائماً بنفسِه بعد أن كان «غرضاً» من أغراض القصيدة، ثم ألقى عليه كثيراً من الخصائص المُحدَثة؛ إنّ عمرَ هذا قد قال نسبياً تقليدياً، ذلك لأن الجوّ الشِّعريَّ في أيامِه كان لا يزال عابقاً بهذا النوع من الشعر:

قِفْ بالديار عفا من أهلِها الأثرُ: عـفـى مَـعـالِمـهـا الأرواحُ والمـطـرُ[5]
بالعَرْصَتيْنِ فمجرى السيل بينما إلى الـقـريـن إلى مـا دونـه الـبُـسُر[6]
تبدو لعَيْنيْك منها، كلما نظرتْ مـعـاهـدَ الحـيّ، دَوْداةٌ ومُحـتـضَر[7]
منازلُ الحي أقوتْ بعدَ ساكنها: أمستْ ترود بها الغِزلانُ والـبقر[8]

---

(١) بائنة: مبتعدة (مسافرة). انبتّ: انقطع.القرين (الجمل الذي يربط مع غيره بحبل واحد).
(٢) زمّ أجمال: رفعت عليها الأحمال. صاح غراب البين (الفراق): اقترب موعود الفراق.
(٣) الألآف (جمع آلف وآلفة): الذين يألف بعضهم بعضاً (لسكناهم معاً).
(٤) تبين: تبتعد (تختفي وراء). غابت عن النظر الجمال التي تحمل رفيقتك عزة، سيغيب بعد قليل الجمل الذي تركب عله عزّة. القرين: الرفيق.
(٥) عفّى: محا. الأرواح: الرياح.
(٦) دونه (قبله أو بعده). العرصتان الخ مواضع.
(٧) المعهد: المسكن (المكان الذي نعهد أهله فيه). الدوداة (في القاموس وفي تاج العروس): الجلبة (الأصوات المختلطة والمرتفعة). الملموح أن يكون معناها: القفر، الخالي. دوداة ومحتضر (منها ما هو مهجور ومنها ما هو مسكون). كلما نظرت (نظرتا). وحذفت الألف لضرورة الشعر.
(٨) أقوى: خلا من السكان. ترود: تتنقل. البقر بقر الوحش (نوع من الغزلان).

وقفتُ فيها طويلاً كي أسائِلَها - والدارُ ليس لها عِلمٌ ولا خبرُ-
دارُ التي قادني حَيْنٌ لرؤيتِها -وقد يقود إلى الحيْنِ الفتى القدرُ[1]-
خَوْدٌ تُضيء ظلامَ الليلِ صورتُها كما يُضيء سوادَ الحِندِس القمرُ[2]
مجدولةُ الخَلق، لم توضَعْ مناكِبُها، ملءُ العِناق ألوفٌ، جَيبُها عَطِر[3]
هَيفاءُ لَفآءُ مصقولٌ عوارِضُها تكادُ من ثِقَل الأرداف تَنبَتِرُ[4]

ولِعمَرَ مَطالعُ تقليديةٌ مثل هذا كثيرةٌ، غير أنّ هذه ليست الغالبة على شعره.

ثم إن بجانب هذا النسيب التقليديّ في العصرِ الأمويّ نسيباً آخَرَ أصيلاً يَحمِل خصائصَ شخصية جديدة. أما هذا النسيب فهو النسيب تاذي تَوفَّر عليه الشعراء العُذريون[5]، كمَجنون ليلى وجميل بُثَينةَ. ثم هنالك أيضاً ذلك الغزل الذي جاء به شعراء الغزل الصريح كوضّاحِ اليمنِ وعمَرَ بن أبي ربيعة.

الحب العذري:

نشأ في صدر الدولة الأمَوية أشخاصٌ وقفوا حياتَهم وشِعْرَهم على امرأة واحدة. وبما أن أكثر هؤلاء قد نشأوا في قبيلةِ بني عُذرة، فقد سمّى رُواة الأدب هؤلاء الشعراءَ «الشعراءِ العذريين»، وسمّينا نحن حُبّهم«الحبَّ العذري».

وكان الذي اشتهر عن هؤلاء العذريّين أنهم أعِفّةٌ في الحب، يحبّ أحدهم امرأةً قريبة أو غير قربة، فإذا تزوجها عاش معها عيشة سعيدة يتذوق الهوى وينعَم بالسعادة. وإذا حال أهلُها بينَه وبينَها بَقي مِنْ مُتع. ومنهم من كان يرفض الطعام والشراب ويُديم الاشتكاء والبكاء حتى ينحَلّ ويُهْزَل ثم يموت.

---

(١) الحين بفتح الحاء: الموت. الفتى مفعول به.
(٢) الخود: المرأة الجميلة. الحندس: الليل المظلم.
(٣) مجدولة الخلق: مكتنزة اللحم غير مترهلة. لم توضع مناكبها: أكتافها غير منحنية. ملء العناق: مملوءة الجسم غير نحيفة. ألوف: تألف الرجل الجيب: فتحة الثوب عند العنق.
(٤) هيفاء: ممشوقة القد. لفّاء: ممتلئة. العوارض: جوانب الصدر. انبتر: انقطع.
(٥) نسبة إلى بني عذرة. وبنو عذرة قبيلة كان مسكنها في شمالي الحجاز.

ولقد أصاب الأستاذ موسى سليمان[1] حينما قال: «ونحن نميلُ إلى الاعتقاد بغلوّ العربِ في ما زعَموه عن بني عذرةَ وعُشّاقِهم حتى أخرجوهم من طبَقة الناس...» ولكنه أضعفَ اعتقادَه هذا حينما قال بعد ذلك بأسطرٍ: إنّ حبّ عُذرةَ حبّ...«لا يعترفُ بحقّ الجسدِ وشهواته وتمتُّعه بلذائذِ الحب»، ذلك لأنه هو نفسه يُعلن-وهو على حق-أن هؤلاء العذُريين كانوا بشراً يحبون اللقاء والوِصال وأن يتمتّع بعضهم بجسدِ بعض[2].

وعِندي أن المحِبّ العذري يختلف من المحِبّ بأنه قد وقَف هَواه على امرأةٍ واحدة أحبّها بكلّ جوارحه، بنيما المحِبّ المغامر قد «شُغِفَ بالمرأة كامرأةٍ». أما فيما عدا ذلك فالمحبّانِ مُتشابهانِ. أما لماذا يُعذّب الإنسان نفسَه بحُبّ امرأةٍ واحدة لا يستطيع أحياناً الفوز بها ثم يُضرِب عن سائرِالنساء مع لينِ الطريق إليهنّ، فذلك بابٌ من أبوابِ علمِ النفس والتربيةِ الاجتماعية، وهو بعيدٌ عن بحثِنا الأدبي هنا.

الشعر العذري:

الشعر العذريّ نسيبٌ في الأغلب وغزل في الأقل، خصائصه المعنوية أنه صادقُ التعبير عن نفسِ قائله طاهر المعاني قليلُها، وإنه عادةً مُقطعاتٌ قصيرةٌ تامةٌ أو قصائدُ أيضاً.

أما الخصائص ففصاحة الكلمات وسهولة التعبير مع حلاوة ورقّة، ولكن مع عنفٍ في العاطفة عادة، وبما أنّ الشاعرَ العذريّ يُعبّر عن عاطفة يَجدُها كلّ إنسانٍ في نفسِه، فقد كان الشعر العذريُّ محبباً دائماً إلى القلوب.

جميل بثينة:

جميلُ بثينةَ أو جميل بنُ مَعْمرٍ هو أبو عمَرَ جميلُ بن عبدِ الرحمن بن مَعْمرٍ العُذريُّ كبير الشعراء العذريين. وكان جميل مولَعاً بفتاة من بني عُذرة أيضاً اسمها بثينة بنت حبأ بنِ ثعلبةَ من بني الأحَبّ، «عَشِقها جميلٌ. وهو غلامٌ، فلما بلغ خَطبها فمُنِعَ منها،

---

(١) الحب العذري (دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٤٣) ص٤١.

(٢) الحب العذري ص٨٨ وما بعدها.

فكان يقول فيها الأشعار حتى اشتهر وطُرِدَ فكان يأتيها سرّاً. ثم تزوجتْ بثينة، فكان جميلٌ يزورها في بيتِ زوجها خفية إلى أن اسْتُعمل دجاجة بنُ رُبْعيّ على وادي القرى (شماليّ الحجاز) فشكاه أهلُ بثينة إليه. فتقدّم دَجاجةُ إلى جميل ألّا يُلمَّ بأبياتِ بثينةَ وأهدرَ دَمَه لهم إنْ هو عاودَ زيارتَها. فاحتبس (جميل) حينئذٍ...وضاقتِ الدنيا به» (غ ٧:١٠٨ - ١٠٩).

ولم يكن جميلٌ يمتنع عن زيارةِ بثينة حتى بعدَ زواجها. وفي أواخرِ أيامه قصَدَ إلى مِصْرَ ليمدَح واليَها عبدالعزيز بن مروانَ فتوفّي هنالك سَنة ٧٢ هـ (٧٠١م).

عاش جميلٌ عيشةً بدوية فكان يرحَلُ مَع قومِهِ. ولذلك غَمَضَ علينا تاريخ حياته.

وكان جميلٌ صادقَ الصَبابة والعِشق. أما شِعره فكان وجدانياً خالصاً، حُلوَ الألفاظ سهلَ التراكيب عَرِيّاً من التكلُّف عَذْباً صافياً، فإن جميلاً لبَداوتهِ لم يحتكَّ بالخصائص الأعجمية التي كانت ترِدُ على الأدب العربيّ من فارسَ والروم. ومع أنّ جميلاً اشتهر بالنسيب، فإنه قال في الهِجاء والمديح والمناقضات أيضاً.

ومن أحسنِ قصائدِ جميلٍ، حين واعَدَتْه بُثينة ذاتَ يوم على اللقاء، ثم عَرفَ أهلها بذلك وحالوا بينها وبين الاجتماع به فجعلتْ نساء قومِهِ يُقَرِّعْنَهُ (غ ٧: ١٠٠-١٠١):

أَبُثينَ، إنك قد مَلكتِ فاسجحي ... وخُذي بحَظِّكِ من كريمٍ واصلِ[1]
فَلرُبَّ عارضةٍ علينا وصلَها ... بالجِدّ تخلِطُهُ بقَولِ الهازلِ
فأجَبْتُها بالرفقِ، بعدَ تستُّرٍ: ... «حُبّي بثينةَ عن وِصالِكِ شاغلي»[2]
لو أنّ في قلبي كقَدْرِ قُلامةٍ فضلاً، ... وصَلتُكِ أو أتتكِ رسائلي»[3]
ويقلْنَ: إنكَ قد رضِيتَ بباطلٍ منها، ... فهل لكَ في اعتزال الباطلِ؟

(١) قد ملكت فأسجح (مثل معناه): قدرت عليّ فعاملني بالإحسان.
(٢) بعد تستر (بعد أن أنكرت حبي لبثينة طويلاً).
(٣) القلامة: ما يقص من الظفر. فضلاً: زيادة. بثينة ملأت قلبي كله، ولو كان فيه مكان خال من حبها لأحببت به شخصاً آخر.

وَلَباطلٌ مِمّن أُحِبُّ حديثَه أشهى إليّ من البغيضِ الباذل،
لَيُزلنَ عنكِ هوايَ ثم يَصِلْنَني؛ وإذا هَوِيتُ فما هواي بزائل[1]
صادتْ فؤاديَ، يا بُثينَ، حِبالُكم يوم الحَجون وأخطأتكِ حبائلي[2]
مَنَّيتني فلَوَيْتِ ما مَنَّيتني، وجعلت عاجلَ ما وعَدتّ كآجلِ[3]
وتثاقلَتْ لما رأتْ كلَفي بها أحْبِبْ إليَّ بذاك مِن مُتثاقلِ[4]
حاوَلْنني لأبِتَّ حبلَ وِصالِكم مِني، ولست- وإن جَهِدن- بفاعل[5]
فَرَدَدتُّهنّ، وقد سَعينَ بهَجركم لما سَعَيْنَ له بأفْوقَ ناصل[6]
يَعْضَضنَ من غيظٍ عليَّ أناملاً ووددتُّ لو يَعْضَضن صُمِّ جنادلِ[7]
ويقلنَ: إنّكِ، يا بُثينَ، بخيلةٌ نفسي فداؤك من ضنينٍ باخل

ومِنْ شِعره العاطفي الجميل أيضاً (غ٧: ١٠٥):

وإني لأرضى من بُثينةَ بالذي لو أبْصَرهُ الواشي لقَرّتْ بلابلهْ[8]:
بلا، وبألّا أستطيعَ، وبالمُنى، وبالأمل المرجُوّ قد خابَ آمِله،
وبالنَظرةِ العَجْلى، وبالعامِ تنقضي أواخِره- لا نَلتقي- وأوائلُه

وكذلك قوله (غ٧: ١٣٩-١٤٠):

(١) بتّ: قطع، هوي (بفتح فكسر) يهوى (بفتح فسكون ففتح): أحبّ.
(٢) يوم الحجون (يوم التقينا في الحجون) وقعت في حبك ولم تقعي في حبي.
(٣) منّيتني: وعدتني، أطعمتني بلقائك). لوى يلوي: مطل (لم يف بالوعد).
(٤) تثاقلت: تباطأت (لم تظهر الميل إليّ). الكلف: شدة الحب.
(٥) بتّ: قطع. بتّ حبل الوصال (هجر، ترك المحبة). جهد: تعب، بذل جهده.
(٦) الأفوق (السهم إذا كان أحد طرفيه أعوج أو مكسوراً) الناصل (الذي ذهب الريش الذي يوضع في آخره): إذا كان السهم على هذا الشكل فهو لا يصيب الهدف لم ينفع سعيهن. لم أطعهن لما طلبن مني أن أهجرك، يا بثينة.
(٧) عض الأنامل (رؤوس الأصابع) كناية عن الندم. عض الجنادل (الحجارة الكبيرة) الصم (الصلبة القاسية).
(٨) قرّت: هدأت. بلابله (جمع بلبل وبلبال: شدة الهم والوسواس).

لقد فرحَ الواشون أن صَرمتْ حبلي بُثينةُ، أو أبدتْ لنا جانبَ البُخلِ
يقولون: «مَهلاً، يا جميلُ». وإنني لأقسمُ، ما بي عن بُثينة من مَهْلِ[1]
أحِلماً؟ فقبلَ اليومَ كان أوانُه، أم أخشى؟ فقبل اليوم أُوعِدتُ بالقتلِ
كِلانا بكى أو كان يبكي صَبابةً إلى إلفِه واستعجلتْ عَبرةً قبلي
فلو تركتْ عقلي معي ما طَلبتُها، ولكنْ طَلابيها لِما فاتَ من عقلي
فيا ويْحَ نفسي، حسبُ الذي بها؛ ويا ويحَ أهلي، ما أُصيبَ به أهلي
أجَدِّيَ لا ألْقى بُثينةَ مرّة من الدهر لَا خائفاً أوْ على رحلِ[2]
خَليليّ، فيما عِشتما، هلْ رأيْتما قتيلاً بكى من حُبِّ قاتلِهِ قبلي؟

***

والشعراءُ العذريون كِثارٌ، عَدّوا منهم جميلَ بُثينةَ وقيس بن ذريح، وعُروةَ بنَ حزام ومجنون ليلى؛ ومنهم أيضاً عَزّة وذو الرُّمة، وإن لم يكونا في الشُّهرة كجميل والمجنون في هذا الباب.

كان كثيرٌ روايةً لجميل، وكان بَدوياً أيضاً من بني ضَمرة. وقد عاش أكثرَ حياتهِ في المدينة. ومعَ أنه شيعيّ من الكيسانية- أتباع محمدِ بنِ الحنفية (ابنِ علي بنِ أبي طالب)- فإنه لقيَ حَظوةً عند بني أميّة.

وشكّ الرواةُ في إخلاصِ كثيّر في حبّه وقالوا إنه ليس بعاشقٍ ولكنه يتقول ويتظاهر بحبّه لعَزّة. ومع ذلك فإنّ شِعرَه لا ينحط عن شعرِ جميلٍ كثيراً:

وما كنت أدري قبل عزّة ما البُكا ولا موجعاتِ القلبِ حتى تولّت
وكانتْ بقطع الحبل بيني وبينَها كناذِرةٍ نذراً فأوْفَتْ وحلّت[3]

---

(١) المهل (بالفتح): الرفق والتأني والتأجيل. مهلاً، يا جميل: خفف من تعلقك ببثينة.
(٢) أجدي؟: أكذاك حظي؟ خائفاً (من أهلها) لأن الوالي كان قد أهدر دمه (أذن لآل بثينة أن يقتلوا جميلاً إذا هو تعرض لها). على رحل (سرج الدابة) على سفر.
(٣) نذرت نذراً بأن تقطع صلتها بي، ثم أوفت بنذرها فحلت نفسها من النذر الذي نذرته.

فقلتُ لها: يا عَزّ، كلُّ مُصيبةٍ إذا وُطنت يوماً لها النفسُ ذلّت[١]
كأني أُنادي صخرةً، حين أعْرَضتْ، من الصُمّ لو تمشي بها العُصْم زلّت[٢]
صفوحاً فما تلقاكَ إلّا بخيلةً؛ فمنْ ملّ منها ذلك الوصلَ ملّت[٣]
فما أنصَفتْ: أمّا النساءَ فبغّضتْ إليّ، وأمّا بالنوالِ فضنَّت[٤]
فإن تكنش العُتبى فأهلاً ومَرْحباً، وحُقّتْ لها العتبى لدينا وقلَّتِ[٥]

وأمّا مجنونُ ليلى، وهو قيس بنُ المُلَوَّح، فاختلفَ الناسُ في أمرِه اختلافاً كبيراً. ومع أننا لسنا هنا في صَددِ الفصل في ما اختلف فيه الناس، فإننا لا نستطيعُ أن نتجاهلَ جملةً صالحة من الشعر الذي رواه الرواة عن شخص اسمُه قيس بن الملوَّح، ذلك الشعرِ الذي يحْمِل الطابَع الأمويّ العُذري. غير أن كثيراً من شعرِ المجنون يُروى لغَيْلان بن عُقبة المعروف بذي الرُّمّة.

أحبّ قيسٌ ابنةَ عمّه ليلى صغيراً، فلما كَبِر أراد أن يتزوّجها فلم يقبَلْ أبوها، فجنَّ قيسٌ وهام على وجهه يَنظِم الشعر في محبوبته. فمِنْ أشهرِ الشعر المنسوب لمجنون ليلى قصيدتُه اليائية التي يقول منها:

فيما ليلَ، كم من حاجةٍ لي مُهمّة إذا جئتكم بالليلِ لم أدْرِ ما هيا
فما أُشرِفُ الأيْفاع إلّا صَبابةً، ولا أُنشِدَ الأشعارَ إلّا تداويا[٦]
وقد يجمعُ اللهُ الشَتيتَيْنِ بعد ما يَظنّان كل الظنِّ أن لا تلاقيا
لحا اللهُ أقواماً يقولونَ إننا وجدْنا طَوال الدهر للحُبّ شافيا

---

(١) وطن النفس: أقنعها، عودها. ذلت: يمكن أن تكون«ذلت النفس»، أي لانت لحمل المصيبة، ويمكن أن تكون «ذلّت المصيبة» أي أصبح حملها على النفس سهلاً.
(٢) الصم جمع صماء، قاسية. العصم: جمع أعصم: غزال يألف الجبال. يشبه عزة بصخرة قاسية ملساء لو سارت عليها الوعول التي تألف الجبال لما استطاعت المشي.
(٣)صفوح: (امرأة) من عادتها أنها تحب هجر المحب والإعراض عنه (وإن كانت هي تحبه).
(٤) النوال: العطاء (الوصال). ضنّ: بخل.
(٥) العتبى: الرضا.
(٦) الإيقاع: الأماكن المرتفعة. إلا صبابة: إلا لما بي من الحب، حتى أستطيع أن أراك ولو من بعيد.

ومـا لهمُ- لا أحسنَ الله حالَهم- مـن الحـظّ في تـصْريم ليلى حِـبـاليا
فـإن تمنَعـوا ليلى وتحْـمـوا بـلادَهـا عـليّ فـلـن تحْـمـوا عـليَّ الـقـوافـيا
أراني إذا صـلَّيتُ يمّـمْـتُ نحـوهـا بـوجـهي، وإنْ كـان المُـصلَّ ورائـيا[1]
فـوالـلـه، مـا أدري إذا مـا ذكـرْتُهـا أثِـنتـيْنِ صلّيْت الـضُحى أم ثمـانـيا[2]
ومـا بيَ إشراكٌ، ولـكـنّ حـبّـهـا وعُظم الجوى أعيا الطبيبَ المداويا[3]

إلا أن شعر هؤلاءِ الشعراء العذريين ليس كلُّه عفيفاً كالذي رأيناه، بل إنّ بعضَه مغامراتٌ جريئة، كما نرى في قولِ جميل:

وبيضٍ غـريـراتٍ تُـثنّي خُـصورَهـا، إذا قمـن، إعـجـازٌ ثِـقـالٌ وأسْـوُقُ[4]
غـرائـرُ لم يَـعْـرِفـنَ بـؤسَ مـعـيشـةٍ، يُجَـنُّ بهـن الـنـاظـرُ المُـتنوَّقُ[5]
وغـلْـغَـلْـتُ من وَجْدٍ إليهنّ بـعـدمـا سَرَيْتُ وأحشائي من الخوف تخفُقُ[6]
معي صارمٌ قد أخلصَ القيْنُ صَقْلَه، لـه حـينَ أُغـشيهِ الـضريـبـةَ رَوْنـق[7]
فـلـولا احـتيالي ضِـقْـنَ ذَرْعـاً بـزائـرٍ بـه مـن صَـبـابـاتٍ إليهـن أولَـق[8]

فجميلٌ هنا ليس شاعراً عُذرياً، بل مُحِبٌّ مُغامرٌ كعُمَرَ ابنِ أبي ربيعة ووَضّاحِ اليمنِ والعرْجيّ والأحْوَصِ وغيرِهم.

---

(١) يمم: قصد. توجه نحو. المصلى: مكان الصلاة، المحراب، القِبلة.
(٢) الضحى: صلاة تكون بعد ارتفاع الشمس، وهي ركعتان إلى ثمانية من السنة.
(٣) الجوى: شدة الهوى والحب.
(٤) الغريرة (جمعها غريرات وغرائر): الشابة القليلة التجربة المغرورة بجمالها. العجز (بفتح العين وضم الجيم، جمعها: أعجاز):الكفل، لحم الإليتين: أسوق جمع ساق.
(٥) المتنوق: الذي يبالغ في تخير الأشياء (الذي لا يعجبه إلا أحاسن الأشياء).
(٦) غلغل: أسرع. الوجد: شدة الحب، ألم الحب. سرى: سار ليلاً.
(٧) يقول: معي صارم (سيف) قد أخلص (صفّى، أتقن) القين (الحدّاد صانع السيوف). أغشيه الضريبة: أغطّي الذي به أريد قتله (أضرب به خصمي) رونق بريق (لا يعلقه الدم لشدة مضائه).
(٨) أولق: جنون.

الغزل الصريح

وكان يعيشُ معَ الشعراء العُذريين شعراءُ مغامرون، شعراءُ لم يَقِفوا حياتَهم وشِعرَهم على امرأةٍ واحدةٍ، بل «تبعوا الجمالَ» وهاموا «بالمرأة» ثم أحبّوا اللّهْوَ حيثُ وجَدوه.

كان عُمَر أشهرَ هؤلاء الشعراء فغطّى عليهم. وهوَ مخصوصٌ بفصول واسعة في هذه الدراسة. وأمّا العرجيّ، وهُوَ عبدُالله بنُ عُمَرَ بنِ عمرو بن عُثمانَ بنِ عفّانَ، فكانَ مِن الشُعراءِ الفُسّاق، ولكنْ لم يبلُغ بمغامرته وشعره إلى ما رُوِيَ عن عُمرَ بنِ أبي ربيعةَ. فمن أجودِ شعرِ العَرْجيّ قولُه في جَيْداءَ إحدى نساءِ الحارثِ بنِ كعب:

عُـوجـي عـلينـا، ربَّـةَ الهَـوْدَجِ؛ إنّـكِ إنْ لا تَـفـعَـلي تحْـرَجـي[1]
إنّي أُتـيحـتْ لي يَمـانـيّةٌ إحدى بنـاتِ الحارثِ مِن مَذحِج[2]
نـلبَـثُ حَـوْلاً كـامـلاً كـلّـه لا نـلـتـقـي إلّا عـلى مَـنـهـج[3]
في الحـجّ، إن حـجّـتْ. ومـاذا مِنَى وأهـلُـه إنْ هِـيَ لم تحـجُـج[4]
أيـسرُ مـا نـالَ مُحِـبٌّ لـدى بَـيْنِ حـبـيبٍ قـولُـه: عـرّج[5]
نَـقـضِ إليكـم حـاجـةً أو نـقُـلْ: «هـلْ ليَ مـمـا بيَ مـن مخـرج؟»

أما الأحوصُ فهو عبدُاللهِ بنُ محمدِ بنِ عبدالله بنِ عاصم، وقد كان أفسقَ من العَرْجيّ وأحسنَ منه شِعراً، إلّا أنه في طَبَقة واحدة معَه. ولكّن يجبُ ألا ننتهِيَ من العصر الأموي قل أن نمُرّ بوضّاحِ اليمن.

---

(١) عاج: مال، عطف إلى مكان. تحرجين: تأتين دنباً. «إنّ» شرطية.
(٢) مذحج: قبيلة في جنوب بلاد العرب.
(٣) منهج: طريق، منهج في الحج: طريق في الحج.
(٤) منى من مناسك الحج (بعد النزول من عرفات يبيت الحجاج في منى ثم يذهبون لرمي الجمار: سبعُ حصيّات يلقونها على صخرة هنالك).
(٥) عرّج: مال إلى قوم ونزل عندهم.

كان عبدُالرحمنِ بنُ إسماعيل يمنيّ المنتسَبِ، ولعلّه مولّدٌ بينَ أُمٍّ عربية وأبٍ فارسيّ.

ولقد كان من أجملِ العربِ فسُمّي «وضّاحَ اليمن» (الأبيض) لجمالِه وبَهائِهِ. ولقد كان يَرِدُ إلى مواسم العرب وعلى وجههِ قناعٌ خوفاً من العين وحَذراً على نفسِه من النِساء لجماله (غ٦: ٢٠٩ - ٢١١).

وكثُرَت مُغامراتُ وضاحٍ حتى إنه شبَّب بأمّ البنين، وهيَ بنتُ عبدِالعزيز بنِ مَروان، لما حجّت هي وجواريها في خِلافة زَوْجها الوليدِ بن عبدالملك وصرّح بالنسيبِ بها، فقال (غ٦: ٢١٨ وما بعدها):

أصَحَوْتَ عن أُمّ البنينَ وذِكْرِها وعَنائها[1]،
وهَجَرْتَها هجرَ امرِئٍ لم يَقْلُ صفْوَ صفائها[2]؟
قُرَشيّةٌ كالشمسِ أشرَقَ نورُها ببَهائها
زادتْ على البِيضِ الحِسانِ بحُسنها ونَقائها
لمّا اسْتَكَرّتْ للشبابِ وقُنِعتْ بردائها[3]،
لم تلتفتْ لِلِداتِها، ومَضَتْ على غُلَوائها[4]
لولا هوى أمّ البنينَ وحاجتي لِلِقائها،
قد قُرِّبت لي بغلةٌ محبوسةٌ لِنَجائها[5]

ثم لم يسكُتْ وضاحُ اليمن بعد ذلك عن التشبيب بأمّ البنينَ فطَلبه الوليدُ بنُ عبدالملك وقتلَه.

---

(١) العناء: المشقة. (في سبيل الوصول إليها).

(٢) فلا يقلو: كره، أبغض، صفو صفائها...

(٣) استكرت: مشت مستقيمة القامة. وقنعت بردائها: سترت وجهها كيلا يعرفها أحد (وهي آتية لزيارتي).

(٤) اللدات: الأترب، من هن من جيل واحد. الغلواء: ريعان الشباب.

(٥) معنى هذا البيت غامض، والمفهوم من سياق الأبيات ما يلي: لولا أنني أحب أم البنين وأريد أن ألقاها لنجوت بنفسي على بغلة معدة لي.

وهنا يجبُ أن نقولَ إن الشعراء المغامرين قد تعرّضوا دائماً للحرائر وقالوا فيهنّ التشبيبَ والنسيبَ وبهتوهُنّ فقالوا عليهن غير الحق. ولكن يُهمنّا نحن هنا أمرٌ واحدٌ هو أنّ الشعرَ الذي قاله وضاحُ اليمن في أمّ البنينَ والذي قاله عُمر بنُ أبي ربيعة في سُكينة بنتِ الحسين شِعْرٌ صحيحٌ عَذْب. أما اتصالُ وضاح بأم البنين مثلاً فلا يُمكِن أن نقبَله على ما تُوحي به هذه الرواياتُ.

ولقد ذكَر الأصفهاني نفسُه (غ٦: ٢٢٤) أن رجلاً شُعوبياً نازع رجلاً من نسلِ الوليد في أيامِ دولة بني العباس فوضعَ عليه «كتاباً زعَمَ فيه أن أمّ البنين عَشِقتْ وضّاحاً، فكانَت تُدخِله صُندوقاً عندها. فوقفَ على ذلك خادمٌ للوليد فأراه الصندوق. فأخذ الوليد ذلك الصُندوق فدَفنه»، في حديث طويل. يظهَرُ على هذه القَصة أثرُ الصنعة، فإن كثيراً من أخبار أمّ البنين لم توجد «إلا في كتابٍ مصنوع (مُلفّق) غثّ الحديث والشِعر (غ٦: ٢١٣)». أما شعرُ وضّاحِ الثابت فلا ينقصُ من قيمته أنه افترى فيه على نِسْوة لم يتّصِل بهن بل شاء أن لوِ اتصلَ بهِنّ.

وكذلك عَشق وضاحٌ امرأةً يقال لها رَوْضةُ وشبَّب بها. ووضَع الرُواةُ على وضاح ورَوْضة أحاديث وأسماراً كثيرة. ولكن بعض شِعره في رَوضة أيضاً صحيح. فمن أجمل شعر وضاح اليمن في روضة (وفي غير روضة أيضاً):

يا روضَ، جيرانُكُم الباكرُ فالقلبُ لا لاهٍ ولا صابرُ[1]
قالت: ألا لا تَلِجَنْ دارَنا، إنّ أبانا رجُلٌ غائر[2]
قُلتُ: فإنّي طالبٌ غِرّةً منه، وسيفي صارمٌ باتر[3]

---

(١) روض: ترخيم روضة. جيرانكم، كذا في الأصل، والمعنى في الأغلب: يا روضة، إن الباكر«المبكر في الأمور ويقصد نفسه» من جيرانكم ولذلك لا يستطيع الصبر عن الاجتماع بكم والمعنى غامض في الأصل.

(٢) ولج: دخل، الغائر: الذي يغار على عرضه أن يَمَسّه أحد بسوء.

(٣) غرّة: غفلة (فرصة سانحة). صارم: ماض، قاطع. باتر: فاصل (يضرب الضو فيفصله عن الجسم).

قالت: فإنّ القصرَ من دوننا قلتُ: فإنّي فوقَه ظاهر[(١)]
قالت: فإنّ البحر من دوننا قلتُ: فإنّي سابح ماهر[(٢)]
قالت: فحَوْلي إخوةٌ سبعةٌ قلتُ: فإنّي غالبٌ قاهر
قالت: فَليْثٌ رابضٌ بيْننا قلت: فإنّي أسدٌ عاقر[(٣)]
قالت: فإنّ اللهَ من فوْقِنا قلت: فربّي راحمٌ غافر
قالت: لقد أعْيَيْتَنا حُجّةً، فأتِ إذا ما هَجَع السامرُ[(٤)]،
فاسْقُطْ علينا كسُقوطِ النَدى ليلةَ لا ناهٍ ولا زاجر[(٥)]!

وهكذا نرى أن شعرَ وضاح وجدانيّ عاطفي مُثير، ثم هو يحمِلُ كثيراً من الخصائص المُحْدَثة فوق ما يحمل شِعرُ عمَر نفسِه: تحرّراً من عمودِ الشعر الجاهلي، فقد قصَر الأبياتَ على المعاني (أي وقف بالأبيات حيث ينتهي المعنى من غير أن يُمهّد للغرض الأساسي من القصيدة بأغراض أخرى ثانوية) وأكثر وضّاحُ الحوارَ وساقه على لسانِه ولسان محبوبته (كما فعَل عُمر بنُ أبي ربيعة)، ولم يتكلّف في إيراد المعاني. ثم كانت أغراضُه أغراضاً حَضَرية لا بَدْوية.

ذو الرمة

وعلى النقيض من وضّاح اليمن ذو الرُّمة: كان ذو الرمةِ شاعراً بدْوياً عُذريَّ الشِعر لم يتأثر شِعرُه بألوان الحَضَر ولا بخصائصَ غريبةٍ جاءته مِن احتكاكِ العرب بغيرِهم من الأمم.

---

(١) القصر من دوننا: يفصل بيني وبينك (بجدرانه العالة). ظاهر: متسلق إلى ظهره (أعلاه).

(٢) البحر: النهر. من دوننا (أسفل من القصر).

(٣) ليث: أسد (حارس قوي شجاع). رابض: قاعد، متربص. عاقر (فاعل من "عقر الدابة": جرحها جرحاً بليغاً).

(٤) هجع: نام. السامر: الساهر (المتحدث) في الليل مع القوم.

(٥) كسقوط الندى (نقط الماء المتكونة بفعل برد الليل والساقطة على الأشجار): برفق وتأنّ. ناه: مانع. زاجر: رادع، طارد.

ذو الرُّمةِ هو غَيلانُ بنُ عُقبةَ نشأَ في البادية وعَرَف فتاةً هي مَيّةُ بنتُ مقاتلِ المِنقري فعَلِق بها فعُرف في تاريخ الأدب بلقب «غَيلانِ ميّةَ» أيضاً. كانت ميّةُ جميلةً أمّا غيلانُ فكان أسود دميماً ويقال إن نفوراً حدث بين غيلان ومَيّة، فمال غيلانُ إلى فتاة اسمُها خرقاءُ ونَسَب بها إغاظةً لمية أو إعجاباً بها هي.

ولذي الرُّمة مديحٌ وهِجاء، فقد دَخل في المناقضات، ونَصر الفرزدقَ على جرير. وله أوصافٌ بَدْوية كثيرة، ولكننا هنا نُعنى بالغزلِ والنسيب وحدَهما:

وقَفْتُ على ربْعٍ لميةَ ناقتي، فما زِلْتُ أبكي عندَه وأُخاطِبُهْ[1]؛
وأُسقيه حتى كاد مِمّا أبُثّه تُكلّمُني أحْجارُه ومَلاعبُهْ[2]
وقد حَلَفتْ باللهِ مَيّةُ، ما الذي أُحدِّثها إلّا الذي أنا كاذِبُه[3]
إذًا فرَماني اللهُ من حيثُ لا أرى، ولا زال في أرضي عدوٌّ أُحاربُه[4]
ألا لا أرى مثلَ الهوى داءَ مُسْلمٍ كريمٍ، ولا مِثل الهوى لِيمَ صاحبه[5]

وقال في مَيّةَ متغزلاً:

لها بَشَرٌ مِثلُ الحريرِ، ومَنطِقٌ رخيمُ الحواشي لا هُراءٌ ولا نَزْرُ[6]
وعينانِ قال الله: كُونا، فكانتا؛ فعولانِ بالألبابِ ما تفعل الخمر
وتَبْسِمُ لمحَ البرقِ عن مُتوضّحٍ كنَوْرِ الأقاحي شافَ ألوانَها القطر[7]

---

(١) ناقتي مفعول به من «وقفت». الربع: المكان ينزل فيه الناس أيام الربيع (ثم يطلق أيضاً على الدار عموماً).

(٢) أسقيه (من دمعي): أبكي عنده. بثّ فلان فلاناً شكواه: أعلنها له. الأحجار (حجارة الموقد؟). الملاعب (جمع ملعب): مسالك الريح بين البيوت، الخ.،

(٣) ما الذي...: ليس الذي أحدثها به إلا الكذب. (فإذا كنت أكذبها الحديث).

(٤) فرماني الله (أصابني بمصيبة).

(٥) ليم: المجهول من «لام».

(٦) بشر: جلد. منطق (كلام) رخيم (حلو النغمة، ليّن). هراء: كثير بلا فائدة. نزر: قليل.

(٧) المتوضح: الفم النقيّ الأسنان. نور (بفتح النون): الزهر الأبيض. شاف: جلا. القطر: المطر (سقط المطر على الأزهار فغسلها فبدت نقيّة تلمع).

فنسيبُ ذي الرُّمة رقيقُ العاطفة، ولكنّ غرابةَ ألفاظِهِ تجعل معانِيَهُ جافيةً أحياناً. ثم أن نسيبه بَدْويّ في الأكثر، ولذلك كان ألصق بالجاهلية منه بالإسلام:

يـا دارَ ميّـةَ بـالخَـلـصـاء فـالحَـرَدِ، سَقياً؛ وإن هجْت أدنى الشوقِ للكمدِ[1]
مـن كـل ذي لجـب بـاتـت بـوارقـه تجلـو أغـر المـعـالي حـالـكِ النّـضـدِ[2]

(١) الخلصاء والحرد موضعان. سقياً (أطلب من الله أن يسقيك المطر). هاج: أثار. أدنى (أقرب) الشوق للكمد (الحزن): ذكّرتني، أيتها الدار، حباً جعلني حزيناً (لأن محبوبي الذي يسكنك ليس فيك الآن؟).

(٢) من كل دي لجب (صوت عظيم) غمام ذي رعود، باتت بوارقه (كان البرق قوياً وكثيراً طول الليل). تجلو أغر الأعالي حالك النضد: ينير البرق (لكثرته وقوته) الأقسام العليا من الغيم الأسود المتراكم.

عُمَر ابن أبي رَبيعة: مُوجَز ترجمته

قال سليمان بن عبدالملك (وكان لا يزال أميراً) لعمر بن أبي ربيعة:

لماذا لا تمدحنا؟

فقال عمر: أنا لا أمدح إلّا النساء.

***

هو أبو الخطّابِ (وقيل: أبو حَفْصٍ، أيضاً عُمر بنُ عبداللهِ (ت نحو ٣٦هـ) بنِ أبي ربيعةَ (واسمُه حُذيفة أو عَمْروٌ) بنِ المُغيرةِ بنِ عبدالله بن عُمَر بنِ مخزومٍ، وكان مخزومٌ هذا من أغنياء قُريش ووجوهها. من أجل ذلك كان يُقال في نسبِ عُمَر: المُغيريُّ (نسبة إلى جَدّه المُغيرة) والمخزوميُّ (نِسبة إلى عشيرتهِ بني مخزوم: وجدّه البعيد) والقُرشيُّ (نِسبة إلى قبيلته التي غَلَب عليها هذا اللقبُ)[١]. وكان اسْمُ أُمِّه مجدَ، وكانت مجد هذه أمَّ وَلدٍ[٢] يَمَنيَّة (الأغاني٦٦: ١).

وقدِ اشتهرَ عُمر منسوباً إلى كُنيةِ جَدّه فقيل عُمر بنُ أبي ربيعة.

وُلدَ أبو الخطّاب عُمر بنُ أبي ربيعة في سَنة ٢٣ للهجرة (٦٤٤م) في الليلة التي قُتِل فيها عُمر بن الخطّاب، لأربعٍ بَقِينَ من ذي الحِجّة (١٤ من تَشرين الثاني-نوفمبر)، في

(١) قريش قبيلة. والكلمة «قريش» لقب النضر بن كنانة (بالكسر) بن خزيمة (بالتصغير) بن مدركة (بالضم) بن إلياس بن مضر (بضم ففتح). فكل من كان من والد النضر فهو قرشي. أما الذين لا ينحدرون من النضر (بالفتح)، بل من نسل الذين هم فوقه (قبله) فلا يُدْعَوْنَ قرشيين. ولقريش عدد من المعاني (راجع تاج العروس - الكويت ١٧: ٣٢٣ وما بعد).

(٢) إذا كان للرجل جارية ثم رزق منها صبياً فإنها تصبح أم ولد تصبح زوجة وتحسب من النساء الأربع اللواتي يجوز للمسلم أن يجمع بينهنّ.

المدينة المنوّرة (في أوثق الأقوال). ولمّا وُلد كان أهلُه مُتسعين في الجاه وفي الثروة من أعمالهم في الصّناعة والتّجارة والزّراعة، وكان أبوه والياً على بعض مَخاليف[١] اليمن.

وقد رَووْا أن عُمر بن أبي ربيعة قد سُمّي عُمر وكنّي أبا حفص وأبا الخطّاب باسم الخليفة الثاني عُمر بن الخطّاب وبكنْيَتيْه لأنه وُلد في الليلة التي قُتل فيها الخليفة الثاني.

ونشأ عمر بن أبي ربيعة في المدينة المنوَّرة ودرَس العلوم التي كانت مألوفة في أيامه وبالطريقة التي كانت معروفة في أيامه. ويبدو أنه كان بارعاً في معرفة القرآن الكريم والحديث الشريف، كما كان بارعاً في معرفة اللغة والأدب. ويبدو أيضاً أنه كانت له معرفة بعددٍ آخَرَ من فنون العِلم كالحِساب والتاريخ.

ونشأ عُمر نشأة ذوي اليسار، في غنى وجاه ونعيم، وقد رُفع عن عاتقَيْه عِبءُ السَّعْي في طلب الرِّزق، فاتّسعت أوقاته لِلاستيقاظ لجمالِ الحياة وهَناءتِها، يُخالطُ الجواري ويسمع الغناء ويَسيحُ في الأرض من الحجاز إلى اليمن إلى العراق والشام (سورية) ويعاشرُ الأدباء والأشراف. ويظهر أن عمر كان تاجراً كبيراً ينتقلُ بين الحجاز واليمن، وكان صاحبَ مناسجَ في اليمن خاصة له فيها عبيدٌ يَنسِجون له، وكذلك كان أبوه من قبلِه. ولعلّ ذلك هو الذي دعاه إلى التَطواف في البلاد: عاش في أول أمره في المدينة ثم عاد إلى مكّة واستقرّ بها، وسافر مِراراً إلى اليمن والشام، وزار فيها تَبوك واللّدَ (فِلسطين) وعَمّان (شرق الأردنّ) وبُصْرى (سورية)[٢]. ولقد تزوّج عمرُ ورُزقَ أولاداً منهم صبيٌّ اسمه جُوانُ وفتاةٌ اسْمُها أَمَةُ الواحدِ، ولعلّه رُزقَ غيرَهما. ولكنّ حياةَ عمرَ الزوجيةَ مغمورةٌ في حياته الأدبية.

ولَهَا عمرُ في مطلع شبابهِ ما شاء له اللهوُ، وساعده على ذلك شباب ريِّق وجمالٌ ظاهر ولَبوس يتّخذه الناس عنه زِيّاً يتباهَوْنَ به، وفراغٌ ومالٌ أغْناه عن الكَدْح في سبيل مَعاشه. وساعده فوق ذلك خُلقُ ذوي اليسار يصانعون به الناسَ فيَصِلون به إلى

(١) المخلاف (بالكسر): الكورة أو الناحية التي يكون عليها وال.

(٢) راجع١: ٦٤-٦٥، .Schwarz باول شوارتز (ت آخر١٩٣٦) وقد أدركته في جامعة ليبزغ وحضرتُ درسه.

الأغنياء أو يُنعِمون به على الفقراء. وامتاز بأخلاق أخرى لا تقلّ عن هذه أثراً لمن سَلكَ مسلكَ شاعرنا في الحياة: كان رضيَّ الخلق، سهل المعاشرة، جواداً، عذبَ الحديث، بصيراً بخطابِ النساء وفيه دُعابة ومَرح. ثم إنه أنابَ في أواخر أيامه وتابَ ورجَع إلى التقوى حتى وافاه اليقين. ولعلّ موتَه كان باليمن في حدودِ سَنة٩٣هـ (٧١١م) في خلافةِ الوليد بن عبدالملك[١].

عمر في الموسم

كان عمرُ إذا دنا مَوْسِمُ الحجّ- في ذي القَعدة أو قبلَه بقليل-تهيأ أحسن هيأة وتزيّن أجمل زينة وخرج يُعارض الحواجّ (النساء الآتياتِ إلى الحجّ)، ثم يستعرضُ الوجوه فأيُّهن أعْجَبَتْه حرص على معرفتها والتحدُّث إليها والاجتماع بها، ولا يزالُ هذا دأبُه ما دام الموسم قائماً، لم تنجُ منه ذاتُ جمالٍ، ولا امتنعنْ من أشراكه ذاتُ نَسب. وكان يتنقّل طَوال الموسم من طريق الشام إلى طريق العراق إلى طريق اليمن- قُبيل الحج أو بعد انتهائه- ما سَمع بذاتِ حُسن قطُّ أو صاحبةِ دَلٍّ إلا طَمع أن يُجرِّب حديثَه في نفسِها حتى شُهر أمرُه وأصبحت النساء تتطلّب لقاءه -ولكنْ في سِتر- وأخذ الرجال يُخشَوْنه على حُرَمِهم، حتى إنه لما حجّت فاطمة بنتُ الخليفة عبدالملك كتب الحجاجُ بن يوسف-والي العراق-إلى عُمَر يتَوعّده إن ذَكَر فاطمة أو عرَّض باسمها (الأغاني ١ : ١٧٠). ولكنّ عمرَ اجتمع بفاطمة. ولعمر مغامراتٌ كثيرة اجتمع فيها بمن أحَبّ، كما نرى في شِعره.

بين الموسمين

وكان يَعِزُّ على عمر أن يبقى بين الموسمين مُفرداً. من أجل ذلك كان له في الحجاز نساءٌ أحبَّهن وأحْبَبنه ثم تزوّج نفراً منهنّ، من هؤلاء جميعاً:

(١) الثريّا بنتُ علي بنِ عبدالله. . .بن عبد شمس، كانت جميلة مُترَفة تَشتو بمكّة وتَصيفُ بالطائف وقد كان عمرُ بها مُغرماً كثيرَ التسقُّط لأخبارها والسعْي في محاولة الاتصال بها. وقد ألَحّ عمر على الثريا في الهوى فشقّ ذلك على أهلها. ثم بلَغ الثريا

---

(١) راجع مناقشة روايات موته في جبور٢ : ١٩٦-٢٠٣.

نفسَها أن عمر تزوج كلثم بنت سعد فغضِبت عليه هي أيضاً. واتفق أن عمر كان في رحلة إلى اليمن وأن أهل الثريا زوّجوها سُهيل بن عبدالعزيز بن مروان فحَملها سهيلٌ معه إلى مصر. ولقد حاول عمر أن يتّصل بالثريا بعد زَواجها أيضاً.

(٢) فاطمة بنتُ محمد بنِ الأشعث الكِنْدية. حجّت فاطمة فهَوِيَها عمر وهوِيَتْه وراسَلها فواصَلته ودخل إليها وتحدّث معها وخطبها فقالت: أما ها هنا فلا سبيلَ إلى ذلك، ولكنْ إن قدِمتَ إلى بلدي-العراق-تزوّجتك. فلم يفعَلْ.

(٣) عائشةُ بنتُ طلحة بنِ عُبيد الله. كانت عائشة من أجمل أهلِ دهرها، رآها عمر في الطّواف فشُغِف بها ونظم فيها الشعرَ، وكان يستوقفها يُنشِدها ما قاله فيها. ومع أن قومها غضبوا من عمر وطلبوا ألّا يذكرها في شعرٍ فإنه ظلّ يَنظِمُ فيها ولكن مُكنِّياً عن اسْمِها عائشة بنتِ طلحةِ «بأمّ طلحة».

(٤) زينبُ بنت موسى الجُمَحيَة، اتفق أنّ ابن أبي عتيقٍ ذَكر زينب هذه عندَ عمر فأطْراها ووصفَ من عقلها وأدبها وجمالها ما شغل قلب عمر وأماله إليها، فقال عمر فيها الشعرَ وشبّب بها. ويظهَرُ أنّ عمرَ اجتمع بها على موعدٍ.

(٥) كُلثُم بنتُ سعدٍ المخزومية. كان عمرُ يَهْوى كُلثمَ هذه وقدِ استطاع بعد جُهْدٍ ومشقّة أن يُوصل إليها شعراً قاله فيها فواعَدتْه، فمكث عندها شهراً لا يدري أهلُه أينَ هو. ثم استأذنها في الخروج فقالت له: «بعدَ أنْ فضَحْتني! لا، واللهِ لا تخرُج إلّا بعد أن تتزوّجني». فتزوّجها ووَلدتْ له أحدهما جوانُ، وماتت عنده.

(٦) رَمْلةُ بنتُ عبدالله بن خَلَف الخُزاعية. حجّت فتعرّض لها عمر بشعرٍ قاله فيها. وقد غضبتْ عليه الثريا من أجل ذلك.

(٧) هندُ بنت الحارثِ المُرّيّة. وقد لقِيَها عمرُ. وهي صاحبة الخِدعة التي وردت في قصيدتِه: ألم تسألِ الأطلال والمتربعا؟

(٨) فتاةٌ اسْمُها أسماءُ، وهي مقرونة في قصائده مع هند وغيرها.

(٩) امرأة اسْمُها النوارُ استطاع عمر أن يُجالِسَها ويُحادثها مرةً واحدة فقط.

(١٠) ليلى بنتُ الحارث البَكرية. تعرض لها عمر بشِعره وهي التي أرادت أن تنصحَ له بألّا يذكُر الحواجّ في شعره.

(١١) لُبابة بنت عبدالله بنِ العباس امرأة الوليد بنِ عُتُبة بن أبي سُفيان، كانت تطوفُ بالبيتِ فرآها وأعجب بجمالها فسأل عن نسَبها ثم تغزّل بها.

(١٢) البَغوم، امرأة «ما كان بمكةَ امرأةٌ أجملُ منها». وقد نَقِمت على عُمر مبالغتَه في التغزل بها.

(١٣) فتاةُ اسمها حَميدة كانت جارية ابن تُفَاحة.

(١٤) أُمُّ الحَكم. وهي امرأةٌ من بني أمية حجّت ورأت عمر فمالت إليه تتحدّث معه، ثم انصرفت إلى الشام. وقد قال عمر فيها شعراً.

(١٥) أُمُّ محمدِ بنِ مروان بنِ الحَكم. حجّت وحادثت عمر، ولكن طلبت إليه ألا يَشهَرهَا بشعر. إلا أنه نظم بها شعراً عُرِفت به بعد ذاك.

(١٦) فاطمة بنتُ عبدالملك. حجت فأرسلت في طلبِ عمر مُغمَّضَ العينينِ معَ جاريةٍ لها، ثلاث مرّات، فاستطاع في المرّة الثالثة أن يهتديَ إلى مكانها بوساطة غِلمانه. وقد رافقَ قافلتها في أثناء رُجوعها إلى دِمشق ولم يتعرّض لها، ولكنه نَسَب بها.

(١٧) سُكينة بنتُ الحسين. اجتمعَ نِسْوة من أهلِ المدينة من أهل الشرفِ وتذاكرْنَ عمرَ بن أبي ربيعة وشِعرَهُ وظَرفه وحُسْنَ حديثه فتَشوَّقْنَ إليه وتمنَّيْنَهُ. فقالت سُكينة بنتُ الحسين عليهما السلام: أنا لكُنّ به، فأرسلتْ رسولاً وواعدَتْهُ الصُورَين وسمّت له الليلة والوقتَ وواعدتْ صواحباتِها. فوافاهُنّ عمرُ على راحلة فحدّثهن حتى أضاء الفجرُ وحانَ انصرافهُنّ، فقال لهن: والله، إني مُحتاجٌ إلى زيارةِ قبر رسولِ الله في مسجدِهِ ولكنْ لا أخْلِطُ بزيارتِكنْ شيئاً. ثم انصرف إلى مكّة وقال:

قالتْ سُكينةُ والدموعُ ذوارفٌ ... منها على الخدَّيْنِ والجِلبابِ[1]:

«ليتَ المُغيريَّ- الذي لم أَجْزِه ... فيما أطالَ تصُيدي وطِلابي[2]-

---

(١) ذرف الدمع: سكبه. الجلباب كساء سابغ يلبس فوق القميص. يقصد الشاعر أن دموعه سالت بكثرة حتى جاوزت خدوده وسقطت على ثيابه ثم ظهر أثرها على ثيابه أيضاً. وتلك مبالغة شديدة بلا ريب.

(٢) المغيري: عمر بن أبي ربيعة (نسبة إلى جد في عمود نسبه).

كانتْ تردّ لنا المُنى أيامُنا، إذ لا نُلامُ على هوىً وَتصابِ»[١]
خُبِّرْتُ ما قالتْ فبِتُّ كأنما رُمِيَ الحشا بنوافِذِ النُّشّاب
أسُكيْنَ، ما ماءُ الفُراتِ وطِيبُه مِنّي على ظمَأٍ وفَقْدِ شَراب[٢]،
بألذَّ منك، وإنْ نأيْتِ. وقلّما تَرعى النساءُ أمانةَ الغُيّابِ[٣]

***

هؤلاء نفرٌ من النساء اللواتي وَصَل عُمر حَبْله بهِنّ (في شِعره على الأقلّ). وهنالك أيضاً خمسون امرأة أخرى ذكَرُهنّ عُمر في ديوانه الذي بين أيدينا. ثم لم يَصِل إلينا شعر عمر كلُّه.

هذا العددُ الكبير من النساء في حياة شخص واحد يحتاج إلى تفسير.

اشتدّ خِلاف القدماء والمُحدَثين والمتأخرين ثم المعاصرين لنا في «حبّ عمرَ بن أبي ربيعة»: أأحبَّ عمرُ حبّاً صحيحاً أم حبّاً من بابِ التَّلهيَةِ[٤]؟ أكان جادّاً في حبّه أم هازلاً؟ أكان حبُّه حبّاً عادياً مألوفاً كحبِّ جميع الرجال وجميع النساء أم أن حبّه أحَدٌ لا مثيل له في اختيار البشر؟ أكان ذلك الحبُّ بَدْوياً عفيفاً حَيِيّاً أم حَضَرياً فاسقاً خليعاً؟ أكان عمرُ يُعبِّرُ في شعرهِ عن حبٍّ يُحِسّه ويستجيبُ لدواعيهِ أم كان حُبُّه تعبيراً فنّيّاً وَقف فيه عند وصْفه في الشعر؟

لقد شَغلَ الصديقُ جبرائيل جبّور نفسَه باستعراض تلك الأحوالِ التي بَدَت من حياة عمَر الخاصةِ- عند النقاد- ثم حاولَ أن يُفسِّرها[٥]. وإذا كان هنالك حالٌ إنسانية تَعْيا على التفسير فهيَ تلك الحال المتعلّقة بتلك الصلةِ بين الرجل والمرأة في عدد من صُوَرِها. ولا شكّ في أنّ الدكتور جبرائيل جبور قد عَرَض علينا «صورةً أمينة لآراء

(١) التصابي: تكلّف الصبا (الميل إلى شخص جميل). والتصابي أيضاً: محاولة استمالة المحبوب.
(٢) الفرات: نهر معروف (في غرب العراق). والفرات: العذب، الحلو.
(٣) نأى: ابتعد.
(٤) التلهية: ما يلهو الإنسان به.
(٥) «حب عمر بن أبي ربيعة وشعره»، (دار العلم للملايين) ص ١٣ وما بعد.

النقّاد والدارسين، ثم حاول أن يجعلَ تفسيرَه في استعراض أخبارِ عمر معَ أولئك اللواتي جاءتِ الرواياتُ بأخبارِ عمر مَعهُنّ.

عدّ الدكتور جبور من هؤلاء ستينَ امرأة أو يَزِدْن وتَتَبّع أخبارَهنّ تتبُّعَ الصّبورِ الدقيق(ص٣٣- ٢٩٦).وهنا يأتي السؤالُ الذي يطلُبُ جواباً:

أأحبّ عمرُ هؤلاء كلّهنّ واتّصل بِهنّ؟

عاش عُمر سبعين سَنة (٢٣- ٩٣ هـ). وأنا لا أُنكِر أن يكون رجل - عمرَ بنَ أبي ربيعة كان أو كازانوفا[١]- قد لَقِيَ هؤلاء النساء كلّهُنْ أو لَقِينُه. ولكنّ الذي أنكره أن يكون في البشر الذين نَعْرِفهم رجلاً يوزّع سِني حياتِه بين سبعين امرأة ثم يجدُ وقتاً ينظم فيه الشعرَ أو يسيرُ فيه على رِجْلين، دَعْكَ من إدارة أعماله في معاملِ النسيج في اليمن .

وتسألُني تفسيراً لذكرِ أولئك النساء الكثيرات في ديوانِ عمر. وإذا كنّا نحن نعلمُ أنه ذكّرَهُنَّ، فلا بدّ من أن يكون عندنا- أو عندَ عمر بنِ أبي ربيعة- تفسيرٌ لذِكرهنّ.

ولِد جبرائلُ سليمان جبّور عام ١٩٠٤ وانصرف إلى الاشتغال بشعر عمر ابن أبي ربيعة في مطلع شبابه ثم بدأ إعداد دراسته في عمر بن أبي ربيعة وشعره عام ١٩٢٩[٢].

وفي عام ١٩٧١ صَدَر كتابه «حبُّ عمر بن أبي ربيعة وشعرُه»[٣]. ومررت أنا في مثل هذا الطور: أصدرتُ «دراسة قصيرة» في عمر بن أبي ربيعة سنة ١٣٦٠ للهجرة (١٩٤١م)، وها أنا اليومَ (٢٢/ ١٠/ ١٩٨١) أدفَعُ هذه الدراسة - وهي على شيءٍ من التفصيل- إلى الطبع.

---

(١) كازانوفا مغامر إيطالي تذكر القصص أنه أسرف في كل شيء، وفي الحب خاصة.

(٢) في «عمر بن أبي ربيعة» بقلم جبرائيل سليمان جبور، (المطبعة الكاثوليكية) ١٩٣٥، الصفحة هـ: «لست أذكر متى كان أول عهدي بعمر بن أبي ربيعة، فقد عرفت بعض أخباره وحفظت بعض أشعاره من زمن بعيد.. وكان أن منحتني الجامعة (الأميركية في بيروت) منذ ست سنوات فرصة سنة مدرسية قضيتها في مصر... وشرعت عندئذ في إعداد بعض مواد هذا الكتاب...

(٣) صدر هذا الكتاب بهذا العنوان «حب عمر بن أبي ربيعة وشعره». والحق أنه الجزء الثالث من كتاب الدكتور جبرائيل جبور «عمر ابن أبي ربيعة». ويبين هذا الكتاب (حب عمر بن أبي ربيعة وشعره) والجزء الأول من «عمر بن أبي ربيعة» ستة وثلاثون عاماً.

أنا كنت أرى - منذ عام١٩٣٦، حينما ذهبتُ إلى أوروبة وحَطَطْت فيها طريق حياتي في تلك البيئة المُشْرِعةِ النوافذِ والأبواب- أنّ عمر بن أبي ربيعة قد أدرك أنّ الحبّ عنصرٌ من عناصر الحياة الاجتماعية. ونحن لا نلوم الإنسان إذا جاع، ولكننا نلومُه إذا هو أكل في غير وقت الطعام أو إذا أكل طعاماً غير مباح. هذه المشلكة تبدّتْ لعمر بن أبي ربيعة، فيما أعتقدُ، فوقف فيها بين وَجْهين من وجهِها أوبين طَرَفين من سلوكه في الحياة:

أيَنْغَمِسُ في حَمْأتِها[١] الماديةِ أم يَتمتّع بزَهوُها النفسيّ؟

لقد قلتُ قبل أسطرٍ إننا لا نعلمُ بشراً يمكن أن ينفعُ نفسَه بلقاءِ سبعين امرأةً على الصورة التي فَهِمها نفرٌ من النقاد والدارسين ممّا ذَكَره عمرُ بن أبي ربيعة في ديوانه عَنهُنّ من أجلِ ذلك أراد عمرُ- فيما أرى-أن يتمتعَ بذلك الزَّهوِ الذي يُستطاب في صِلة المرأة بالرجل في البيئة الاجتماعية. لقد صَنَع عُمر لنفسه جوّاً من المُتعة النفسية التي تَبقى في ذكرى الإنسان بقاءً طويلاً سليماً لذيذاً وآثر الالتفاتَ عنِ الانغماس الماديّ الذي يُعْقِبُ شقاءً مديداً شديداً لديداً[٢]. إنّ عمر بن أبي ربيعة كان يقُصّ علينا من عالم المرأة أحاديثَ نفسِه، فكانت تلك الأحاديثُ له حالاً من السعادة الدائمة في نفسه.

غير أنّ هذا لا يَعني أنّي أُنزّه عمر بن أبي ربيعة عن الحبّ الماديّ المألوف ولا أقولُ إنه لم يُواقِعْ مُحرَّماً. ولكنني الآن أرى نفسيَ مُعْنىً بتفسير هذا الغزلِ الكثير الصريح في شِعْر عمر بن أبي ربيعة وبتفسيرِ تلك الصُّوَرِ الواضحةِ والمغامرات الجريئة. ولعلّ تفسيري هذا يوافقُ شيئاً من الواقع في حياة عمر إلى جانب موافقتهِ للمنطق في سلوكِ البشر عامّةً.

---

(١) الحمأة (بفتح فسكون): الطين الأسود المنتن

(٢) اللديد (بدالين مهملتين غير منقوطتين): الموجع.

عناصر شخصيته وخصائص شعره

إنّ شعرَ عُمَر الذي وصل إلينا قليل جدّاً بالإضافة إلى طول حياته (٢٣- ٩٣هـ) وإلى انصرافه إلى قول الشعر لا يحْجِزُه عن قوله حاجزٌ، وخصوصاً إذا نحن نَسَبْنا مِقدار شعره الذي وصل إلينا إلى مقادير شعر أولئك الذين عاشوا أقلّ منه في هذه الدنيا مثلَ أبي نُواس (١٤٠-١٩٩هـ) وأبي تمّام (١٨٨-٢٣٢هـ) وابنِ الروميّ الشاعر المكثِر- ولعلّ شعرَ ابنِ الروميّ أوفَى ما عند العرب فنوناً ومِقداراً- عاش اثنتَيْنِ وسِتين سَنة (٢٢١-٢٨٣هـ) بينما عاش عمر سبعين سنة.

ومَع قِلّة شعرِ عُمر فإن في وصوله إلينا مشاكلَ واضحة. لقد ضاع شيءٌ كثير من شعره؛ وقد نُسِب إليه أبياتٌ من الشعر ومقطوعات لم يقُلها. ولعل أشياءَ من شعره قد نُسِبَت إلى آخرين (راجع جبور٣: ٢٩٩- ٣٤٤).

وإذا كان لكلّ شاعرٍ أنصارٌ وخصوم، فإنّ الناسَ كلهم كانوا أنصاراً لِعُمَر- معَ أنّ نفراً من العلماء انتقدوا عدداً من ألفاظهِ النازلةِ عن مرتبةِ الفصاحة ثم عدداً من تراكيبه لمّا فيها من اللّين.

ولم يكنْ عجيباً أن يَبدوَ عُمَر معتزّاً بنفسه ومُغتراً أحياناً ومُعجباً بمسلكِهِ في الحياة، صريحاً فيما يقوله. إن عُمَر لم يتّخذ الشعر «منهجاً» لحياته، ولم يكن يريد أن يكون جادّاً في كلّ ما يقول. ولعلّ كثيراً من هذا الشعر الصريح عندَه كان من اختراعِ خياله لامن نتائج تَجاربه. ومَع هذا كلّه فإنّ عمَر كان في الحالين يُعبّرُ عمّا يجولُ في نفسه. وليس في ذلك غرابةٌ: أليسَ في الكلام المبالَغِ فيه ترويحٌ عن النفس بأنْ تتحدّثَ عن أمانيها؟

أما إجماعُ الناس على التعلّق بشعرِ عُمَر- إلّا أولئك النفرَ القليلين الذين انتقدوا نقصَ الفصاحة في ألفاظه وزيادةَ اللين في تراكيبه - فليس عسيرَ التعليل. إنّ الجانبَ

المشهور من شعرِ عُمَر يدور على موضوع الغزل القريب من كلّ نفسٍ، وخصوصاً إذا كان التصريحُ في الغزل مستوراً باللّباقة اللغوية، فإن الناس أيضاً يحبون أن يتناشدوا هذا الشعرَ للترويح عن أنفسهم أيضاً. ثم إنّ التعبير السهل الواضح في شعر عمر قد جعل له سيرورةً على الألسُنِ ومنزلةً في القلوب ونفوذاً إلى الأذهان. غير أني أنا لا أختارُ أن أكتُمَ القارىء أن الإنسانَ إذا بَلَغَ إلى مرتبة رفيعة من اختيار الحياة وما فيها فإنه يفقِدُ كثيراً من التلذّذِ بشعرِ عُمَر. غير أنّ إعجابنا بشعر عمر من حيث الخصائصُ اللفظية والمعنوية يبقى دائماً كبيراً.

ولا يحُسَبَنَّ أحدٌ أن عُمَر لم يقُلْ شِعراً على النَّمَط القديم، فإنّ له أشياء مَن النَّمَط التالي[1]:

أَلَمْ تَرْبَعِ على الطَّلَلِ المُريبِ   عفا بينَ المُحَصّبِ فالطّلوبِ[2]

بمكّةَ دارساً دَرَجتْ عليه   خلافَ الحيِّ ذيلُ صَبا دؤوب[3]؟

فأقفرَ غيرَ منتَضَدٍ ونُؤْيٍ   أجدَّ الشوقَ للقلبِ الطَّروبِ[4]

كأنّ الرَّبْعَ ألبِسَ عَبقريّاً   من الجنديّ أو بَزِّ الجُروب[5]

---

(١) ديوان عمر (اللبابيدي)، ص٩٧؛ راجع جبور٣، ٤٨٩.

(٢) ربع يربع (بفتح الباء فيهما) بالمكان: أقام واطمأنّ. المريب: الذي ضاعت معالمه فلم يتمكن الواقف عليه من معرفته بثقة. عفا: امّحت آثاره. المحصّب: مكان فيه حصى كثيرة. وهو موضع رمي الجمار (من مناسك الحج) في مِنى (بكسر الميم)، شرق مكة. طلوب بئر قرب سميراء عن يمينها (تاج العروس الكويت٣: ٢٧٨). وسميراء من منازل حاجّ الكوفة على مرحلة من فَيد مما يلي الحجاز (١٢: ٨٠). وفيد بطريق مكة في نصفها (؟) من الكوفة (٨: ٥١٥).

(٣) دارس: آثاره ممحوّة، درجت: سارت، مشت (هبّت الريح). خلاف: حول، صبا: ريح الشرق. دؤوب: مستمرة، دائمة.

(٤) أقفر: خلا، (ذهبت آثاره). منتضد: مكان مرتفع كانت توضع عليه الفُرُش (بضمّ فضم). نؤي: خندق حول الخيمة. أجدّ: جدّد. الطروب: الذي يتأثر (بالحزن أو بالفرح). ذكرني بشوقي القديم...

(٥) الربع في الأصل المكان المسكون. هنا (المكان الذي كان مسكوناً). الجندي (؟). في القاموس: الجنادي (بضم أوله وتشديد الياء): نوع من الأنماط (نسيج من الديباج أو الحرير الصفيق. أي الغليظ) البز: الحرير. الجروب (؟).هذا المكان نبت فيه النبات المختلف الألوان فبدا كأن ثوباً عبقرياً (بولغ في نقشه وتزيينه) من حرير قد نشر عليه.

وعُمر- ككلّ شاعرٍ آخر- تأثّر بعصره وتآثر بالشعراء، أو بنَفرٍ من الشعراء، الذين تقدموه. ولعلّ امرأ القيس كان أكثر الشعراءِ القدماء أثراً في عُمَر، فإن عمر كان أحياناً يَغْرف من بحر امرىء القيس مَعانِيَ وتعابيرَ، من ذلك مثلاً (راجع جبور ٣: ٥٠٢) يقولُ امرؤُ القيس في المعلّقة:

فلما أجَزْنا ساحةَ الحيّ وأنتَحى بنا بطنُ خَبْتٍ ذي عِقافٍ عَقنقَلِ،

ويقول عُمر في الرائية:

فلما أجَزْنا ساحةَ الحيّ قُلنَ لي: أما تَتّقي الأعداء والليلُ مُقمِرُ؟

وأقرب من ذلك في الأخذ (راجع جبور ٥٠٧) قولُ عُمَر:

فبَعثْتُ جاريتي فقُلْتُ لها: اذْهبي فاشْكي إليها ما عَلِمْتِ وسلَمي،

فإنك لا تخطىء فيه قول عنترة في المعلقّة:

فبعثتُ جاريتي فقُلتَ لها: اذْهبي فتَجسّسي إخبارَها لِيَ واعْلَمي

ولقد سارَ الدكتور جبرائيلُ جبّور على آثارِ عُمر بين السابقين من الشعراء بشيء من الصبر فجمَع نماذجَ صالحة (٤٩٨:٣- ٥١٧).

***

منزلةُ عمر ابن أبي ربيعة في الشعر العربي متميزةٌ من كلِّ ما سواها في أنها تتألف من عناصرَ متفرقةٍ في كثير من الشعراء، ولكنها تؤلف فيه شخصية بيّنة واضحة: إن ما في ديوان عمر موجودٌ عند غيره من الشعراء على قِلّة أو كَثرةٍ، وعلى غُموض أو وضوح، ولكنّ الديوانَ في مجموعِه- على أنه وَحْدةٌ تامة- هو الجديدُ في تاريخ الشعر العربِي. ونحن إذا درسنا الخصائصَ التي جمعها النقاد والرُواة من ديوانِ عمر وجدناها تنحلّ أقساماً ثلاثة هي:

أ- ما يَرْجعُ إلى الطابَعِ الشخصي في نفسِه (نفسيتُه وفلسفته).

ب ـ ما يرجع إلى خصائصِه الفنية (المعنوية واللفظية). ومنها ما يرجع إلى تعابيرَ وتراكيب وإلى تشابيه واستعاراتٍ زعَم النُقاد أن عمرَ قدِ ابتكرها.

جـ ـ الجديدُ والقديم في شعر عمر.

شخصية عمر ومقامه:

بَنَى شخصيةَ عمر عناصرُ مختلفةٌ وعواملُ متفرقة، فعمر كان من قبيلة مَنيعة وفي أُسرة كريمة تجمَعُ إلى القوة الاجتماعية قوةً اقتصادية حمَت الشاعرَ من اضطهاد الولاة ومن تهجُّم الناس. ولا غروَ فأبوه عبدالله كان أحد العُمَّالِ منذُ أيام الرسول إلى أيام عُثمان بن عفان، أي في نحو رُبع قرن. ثم إن غِنى الشاعر حطّ عن عاتقه السأمَ من تكاليف الحياة ووفّر وقته على قول الشعر وعلى قوله في ما اشتَهَتْ نفسُه لا في ما أراده الآخرون مِنَ المديح والهجاء والرثاء.

وكان عُمر جميلاً حَبَّبَه جمالُه إلى قلوب النساء وساعده على الوصول إليْهِن، وكان لبّاساً حسَن الزِّي والشارة، إذا لبس ثوباً شُهِر به وأُخِذ زِيُّه عنه، وكان أنيقاً في عاداتِه لبِقاً في تصرفُه، كيِّساً في عُشرته، حسنَ الحديث والتحديث. وساعده فوق ذلك خُلُقُ ذوي اليَسار يُصانعون به الناس.. وكان في عمر دُعابةٌ تجمعُ القلوب حوله في استئناس وثِقة.

ولعلّ أهمَّ ما اتصف به عمرُ بن أبي ربيعة، مما له صلة بشعره، أنه كان خبيراً بعقلية النِساء، بصيراً بخطابهن، يَعرِفُ كيف يبدأ الحديث معَهن وكيف يُتِمّه وكيف يتوصَّلُ إلى المتصونة المنيعة إن مالَ إليها.

من أجلِ هذا كلّه كان عمرُ مرحًا بشوشاً ينظرُ إلى الحياة من ناحية السرور فيها، وإذا كان قد ورَد في بعض شعره شيءٌ من ذكْر البكاء والدموع، فلا يَعْني ذلك أنه كان حزيناً أو أنّ امرأة حَزَنته، ولكنه فعل ذلك لأنه وجد أن مثل هذا الموقفِ قد يفتحُ أمامَه طريقاً جديداً إلى قلوب النساء. وكذلك كان عمرُ مُغامراً جريئاً لم تمنَعْه مسافةٌ من الوصول إلى محبوبة، ولا حَجَزَهُ سُور المُلْكِ من أن يتصل بأهْلِ بيتِ الخلافة، ولا نهاه المسجدُ الحرامُ ولا حُرْمةُ الحجّ عن أن يتعرَّض للنساء أو يتّصِل بهنّ. إلّا أنه لم

يكن يضعُ نفسَه موضع التَجْرِبة، فإنه لم يُقْدِم إلا عن خِبرة: فما اغترَّ قطُّ بفُرصةٍ تَرَجَّحَ فيها ظنُّه بين الخيبةِ والظَفَر. ولذلك قال عن نفسِه:

صَرَمْتُ وواصلْتُ حتى عَرَفْتُ   أينَ المصادرُ والموردُ(١)
وجَرّبتُ من ذلك حتى عرفت   ما أتوقَّ وما أعمِد(٢)

ولم يكن عمرُ مستهتراً في مُغامراتِه، بل كان مُتحرّزاً مُتستراً، وكان يُغطّي هذه المعامرات بكثيرٍ من التقوى والنُسُك.

أما فلسفته- إنْ جازتِ التسميةُ- فكانتْ، مما يبدو من شِعره ومما نَصَح به لِعروة وعُثمانَ لبْني الزبير حينما لَقِيَهُما بمكة وهو شيخٌ، «الاستفادة من مَسرّات الحياة»؛ فإنه قال لهما: «يا ابْنَيْ أخي، إنني مُوكَّلٌ بالجمال أتْبَعُه، وإني رأيتُكما فراقَني حُسْنكما وجمالُكما فاسْتمتِعا بشبابكما قبل أن تندَما عليه». ثُم إنّ عمرَ نفسه لم يُقصر همَّه على امرأةٍ واحدة، بل جَمَع في حياته كلّ مَنِ اتصفتْ بجمالٍ، يتطلَّعُ إلى أخبارها ويُغامر في سبيلها. إنه شُغِف بالمرأة «كامرأة» ولم يكُن همَّه امرأةٌ مُعينة.

بَقي في عناصرِ الطابَع الشخصي أمرٌ واحد يدورُ حول عِفة عمر. ولقدِ اختلف النقادُ ورُواة الأدب والمؤرخون في ذلك، فقال بعضُهم: لم يكن عُمر يفعل شيئاً مما ذكَره في شِعره من الفِسْق؛ وقال آخَرون: بل فعَل. أما الأدِلّة على عِفته فمفقودة، وكل ما في ديوانه من شِعرٍ وما لابس حياتَه من أحوالٍ يدلُّ على أنه عاش في شبابه عيشة حُبّ صحيحة ونَعِم بوِصال الكثيرات ممن كنَّ يَرُقْن له أو يروقُ لهن.

وقبلَ أن نأتي إلى خصائصِ عمر الفنيّة من ميزات شعره والكلام عن أسلوبه نورد شيئاً مما قاله النقاد في مقام عمر بن أبي ربيعة بين الشعراء:

قال عمرُ ابنُ أبي ربيعة نوعاً واحداً من الشعر: الغزل الإباحيّ، أو كما قال ابنُ

---

(١) صرم: قطع. أين المصادر والمورد (كيف أدخل في الأمور وكيف أخرج منها).
(٢) أتوقّى: أحذر، أتجنب، أعمد: أقصد (أفعل).

سلّام الجُمحيّ: «كان عمر يُصرّح في الغزل». ولم يَحْفِل عمرُ بفنٍّ غير الغزل لأنه نشأ كما رأينا من قبلُ غنياً مُترَفاً فلم يَحْتجْ إلى مدحِ أميرِ تكسُّباً ولا رهبة. وهو لم ينغمس أيضاً في الهجاء الذي انغمَس فيه مُعاصروه كَجريرٍ والفرزدق والأخطل، ولقد أكد ذلك لنا ابنُ سلّام فقال عن عمر إنه كان «لا يهجو ولا يمدَح»، وزاد ابن رشيق فقال عنه إنه كان يأنَفُ من المدح والهجاء (٦٧ : ١).

ولم يعبأ فحولُ الشعراء في بادىء الأمر بشِعْرِ عُمر لأن عمر جرى على غيرِ سَنَنِهم وأسلوبهم، إذ إنه رأى في الغزل متسعاً للقول ووجد في الحياة الحَضَرية ألواناً كثيرة من الغزل استغنى بها عن مَناحي القدماء، ثم إنه عرّض بها فقال: ما لي وللبَرْق والشوْك! ولكن عمر أقنع خصومَه فيما بعد حتى قال جريرٌ- مُكْبراً ومستهزئاً معاً- : «ما زال هذا القرشيُّ يَهْذي حتى قال الشعر!» ثم اعترفوا له بالسَّبْق في فنّهِ فقال النُّصَيب الشاعرُ: «لَعَمر بنُ أبي ربيعة أوصفنا لربّات الحِجال» .

بعدئذٍ اعترفوا بأنهم كلّهم مُقصِّرون عنه فقد قال الفَرزدَق، وقد سَمِع شيئاً من نسيبِ عمر: «هذا الذي كانت الشعراء تطلُبُه فأخطأته وبكَت الديار، ووقع عليه هذا». ولم يكتفِ عمرُ بأن حاز مَقاماً رفيعاً لنفسِه؛ بل حاز مثله لقومِه أيضاً. فقد «كانتِ العرب تُقِرُّ لقريشٍ بالتقدم في كلِّ شيء عليها إلا في الشعرِ فإنها كانت لا تُقِرُّ لها به حتى كان عمرُ بن أبي ربيعة فأقرَّت لها الشعراء بالشِعر أيضاً ولم تُنازعْها شيئاً». وأخيراً أصبح غزلُ عمرَ مقياساً تُقاس به أشعار الشعراء (راجع ابن سلّام ١٣٧؛ الأغاني٧٤:١ وما بعد). وقال ابنُ خَلّكان (١:٣٧٨، طبعة بيروت ٤٣٦ : ٣): «لم كن في قُريشٍ أشعرُ منه».

خصائصه الفنيّة:

ربما ظنّ نفرٌ منّا أن شعرَ عُمَر- لسهولتِه ولقُرب مأخذِه من الحياةِ العاطفة-لا خصائص مُميِّزةً له، وأن عمرَ شاعرٌ غَزِلٌ جميلُ الشعرِ حُلوُ الأسلوب فحسبُ. ولكنّ تتبّع القصائد في الديوان يُمكّننا من أن نكشِف عن خصائصِ مُهمّة واضحة كتلك التي نَعْرفها في شعرِ كل شاعر آخرَ، وفي شعرِ الفُحول منهم أيضاً.

(١) ألفاظه:

يرى أكثرُ الدارسين أنّ ألفاظَ عمرَ سهلةٌ. والواقعُ أن عمرَ يميلُ إلى الكلِمات الفصيحة- المألوفة- الحلوةِ الطليَّة، ولكنْ يغلِبُ عليه أمران في اختياره تلك الكلمات: أوّلهما أنه خاضعٌ عنه في عبقريته الشعرية لما ألِفَه الشعراءُ من «الجَزالة»،أي الإتيانِ بكلمة تعبِرُ عمّا تُعبّر عنه الكلمات المتعدِّدةُ عندنا، مُضافاً إلى ذلك أسماءُ الطلولِ وصفة الإبل ووصفُ الصحراء وما إلى ذلك. وثاني الأمرين أن عمرَ حِجازيّ يستعمل كثيراً من الكلمات على ما هو مألوف في لَهجة أهل الحجاز دون غيرهم. فإذا نظرتَ إلى كلمة «وعَد» مثلاً ظننتَ لأول وهْلةٍ أن معناها «قَطَع عهداً لآخَر في خير»، مع أن معناها في شعر عمر«هدّد، توعّد بشرّ» (راجع تفسير: «ليت هنداً أنجزتنا ما تعد»- في المختارات). وكذلك«سأل- كلأ (حفظ)- لو أبصر وغيرهما» فإنه حذف الهمزة فيها في الغالب. فقد قال مثلاً:

-أقولُ لواشٍ سالني وهو شامتٌ   سعى بيننا بالصُرْمِ حيناً وأجلبا
- فقالت وقد لانتْ وأفرخَ روعها: كَلاك بحفظِ ربُّك المتكبر

وحذفُ الهمزة لُغة هُذيلٍ سكان الحجاز الذين هجاهم حسانُ بنُ ثابتٍ الحجازي فحذف الهمزة في «سأل»:

سالتْ هُذيلٌ رسولَ الله فاحشةً   ضلّتْ هُذيل بما سالتْ ولم تُصِبِ[1]:
سالوا رسولَهُم ما ليس مُعْطيَهم   حتى المماتِ وكانو سُبّة العرب[2]

وكذلك قال عمر (ببناء- سال- سأل- للمجهول):

ولو أنه يستطيعُ الجوابَ   لأخبرَ إن سِيلَ أن يُخْبِرا

ولكن من غير الصوابِ ان نقولَ إن شعرَ عمر يمثل اللغة الحجازيّة وَحْدَها أو أن

(١) لما جاء بنو هذيل إلى الرسول ليدخلوا في الإسلام سألوه أن يحلّ لهم الزنا. فلم يجب الرسول طلبهم. ثم دخلوا في الإسلام.
(٢) سبّة: مسبة، معرة، عار.

عمر لم يَجْرِ في عِنان اللغة العربية العامة التي نَظم فيها شعراء الجاهلية، سواءٌ أكانوا من أهلِ الحجاز كقَيْسِ بنِ الخطيم أو من أهلِ نجدٍ كزهير بنِ أبي سُلمى أو من أهل البَحْرين (من شرقيّ شِبه جزيرة العرب) كطَرَفةَ بنِ العبد أو من أهلِ الجَنوب اليمانِيّة كزُهيرِ بنِ جَنابٍ الكَلبيّ.

أما الألفاظُ الغريبة في شِعر عمر فحَسْبُكَ منها ما وَرَد في الأبياتِ التالية:

فانظُروا كلّ ذات بُوصٍ رَداحٍ فأجيزوا شهادةَ العَجْزاء[1]،
وارفضوا الرُّسْحَ في الشهادةِ رَفضاً: لا تُجيزوا شهادةَ الرسْحاء[2]
عجّل اللهُ قِطَّهنَ وأبقى كلَّ خَوْدٍ خَريدة قَبّاء[3]،
تُعْقِدَ المِرْط فوق دِعْصٍ من الرملِ عريضٍ قد حُفّ بالأنقاء[4]
ولَحى اللهُ كلَّ عَفْلاءَ زَلّاءَ عَبوساً قد آذنَتْ بالبَذاء[5]
صَرْصرٍ سَلْفَعٍ رضيعةِ غَوْلٍ لم تزل في شصيبة وشقاء[6]

(٢) تراكيبه:

وتراكيبُ عمر كتراكيب كثيرٍ من الشعراء الإسلاميين مَتينةٌ نقيَّةٌ لا عُجْمية فيها. ولكن بما أن عُمر كان يُؤثر المعنى دائماً على اللفظ ويُحاول أن يُعبّر عن خَلَجات نفسِه

(١) بوص (بالفتح أو بالضم): العجيزة (مؤخرة الإنسان). الرداح: العظيمة وسط الجسم. العجزاء: كبيرة الإليتين.
(٢) الرسح جمع رسحاء: قلة لحم العجز (بفتح فضم) والفخذين (بفتح فكسر).
(٣) القط: النصيب، الجزاء. عجّل الله قط الرسح (بموتهن). الخود: الحسنة الخلق (بالفتح)، الشابة الناعمة، الخريدة: البكر لم تمس. القباء: الضامرة الخصر.
(٤) المرط: ثوب من الحرير أو الصوف أو الكتاب تأتزر به المرأة. الدعص: تلة كبيرة من الرمل (كناية عن وسط المرأة) النقا: تلة صغيرة من الرمل (الأبيض).
(٥) لحى: لعن أبعد. زلاء: قليل لحم وسطها وفخذيها (بفتح فكسر). العفلاء: من كان في جهازها عيب من اعوجاج ونحوه. البذاء: سوء الخلق وفحش المنطق.
(٦) صرصر: عالية الصوت. سلفع: صخابة، بذيئة (كثيرة الصياح). رضيعة غول: رضعت من أمها، وأمها حبلى رضاع يمرض عليه الأطفال). شصيبة: شدة، جدب من العيش.

بأوسَع ما يستطيعُ، فإنه كان يتساهلُ أحياناً في تراكيبهِ حتى تضعفُ. خُذ مثلاً قولَه:

ثم قالوا: «تُحبّها؟» قلت «بهراً! عدَد النجم والحصى والتُّرابِ!»[1]

فإن في هذا البيت على جماله عيوباً ظاهرة: أوّلُها وأبرزُها حذفُ همزةِ الاستفهام من «تحبّها» والفاء من «قلت». ثم إن قوله «بَهْراً، عدَد النجم والحصى والتراب» من كلام العامة. نحن لا ننكر أن البيتَ جميلٌ جداً على هذه الصورة، ولكنه أيضاً ضعيف بما فيه من أخطاء.

وعقد باوْلُ شوارتز فصلاً طويلاً (٩٤ : ٣- ١٧٢) في لغة عمرَ، ولكنه لم يدرس «لغةَ عمرَ، بل تتبّع الأخطاء الثابتة والمظنونة في أبياتِ الديوانِ كلِّها بصبرٍ عجيب - معَ أنّ تلك الأخطاء لم تكن في رأيهِ هو أيضاً كثيرة - ثم صنّفها أصنافها: في اللفظِ (المدودِ القِصار والطِوال)، في الأسماءِ، في الأفعال، في الضمائر، في أسماء الموصول، إلخ، مِما لا صبرَ لأحدٍ على مِثلِه إلّا إذا كان مستشرقاً ألمانياً من ذلك الجيل الذي شَهِد أواخرِ القرنِ التاسعَ عَشَرَ. وقد أوردَ شوارتزُ كلَّ هَنَةٍ في ديوانِ عمر. فلنأخذ أولاً هذينِ البيتين:

يا سُكْنُ، لستُ وإن نأتْ بِكِ دارُكُمْ بالسالِ عنكِ ولا المَلولِ المُعْرِضِ
وبلغنا، واللهِ وصْلكَ أُخرى بعدَ عَهدٍ. فقلتُ: يا عبْدُ، كلاً

أما في البيت الأولِ فكان عليه أن يقول«بالسالي» مِن سلا (تسلّ عنِ الشيء ونسِيَهُ) هو سالٍ (بكسرتين، لأنه اسمٌ منقوصٌ. ولكن الياءَ تعودُ إلى الاسمِ المنقوص إذا حُلّيَ بلام التعريف). ومعَ أنّ حذفَ الياء من الاسم المنقوص، ومن الفعل الناقص(المعتلّ الآخِرِ، مثلَ: يرمي، يدعو، ينهى) لغةُ بني هُذيلِ الحجازيين، ومع أنّ شيئاً من هذا قد ورَدَ في القرآن الكريم، فإننا نحن لا يجوزُ لنا أنْ نُحاكي القرآن الكريمَ في مثلِ ذلك. في القرآنِ الكريم:

﴿وثمود الذين جابوا الصخرَ بالوادِ﴾ (٨٩:٩، سورة الفجر)- ﴿إنك بالوادِ

(١) بهراً: عجباً

المقدّسِ طُوى﴾ (١٦:٧٩، النازعات) - ﴿فلمّا أتاها نُوديَ من جانبِ الوادِ الأيمنِ﴾ (٣٠:٢٨ القصص) - ﴿ذلك ما كُنّا نبغِ﴾ (٦٤:١٨، الكهف) - ﴿والليلِ إذا يَسْرِ﴾ (٤:٨٩، الفجر) مكانَ: الوادي، نَبْغي، يَسْري. ويبدو لي أنّ هذا الجوازَ قاصرٌ على الفعلِ الناقص بالياء، قياساً عاماً على الاسم المنقوص (المختوم بكسرةٍ، إذا كان فِعْله مختوماً بألفٍ طويلة أو بألف مقصورة أو بياء، نحو: دعا يدعو فهو داعٍ، رمى يرمي فهو رام، نَسيَ ينسى فهو ناسٍ. أما إذا كان الفعلُ الناقص مختوماً بواو، نحو سَرُوَ يَسْرُو، فإن اسم الفاعلِ منه يكون حينئذ سَريّ).

وأما في البيتِ الثاني فإنّ الفعل «بلغنا» فعلٌ ماضٍ حقّه بناء آخره (أي الغين، هنا) على الفتح (وتسكين الغين فيه خطأ فاحش من الشاعر).

ومثلُ هذا أيضاً قول عُمر:

آمينَ يا ذا العرشِ، فاسْمَعْ واسْتَجِبْ لِمـا نَـقـولُ ولا تخـيـب دُعـانـا

معَ الليل قَصْراً رَمْيُها بأكُفِّها ثلاثَ أسابيعٍ تَعُدّ من الحصى

أما البيتُ الأول هنا فيمكن الدفاعُ عنه بسهولة: أشبَعَ عمرُ حركةَ اللام في«لِما» (لِضَرورةِ الشعر) ثم حذف الهمزة في القافية «دعانا» (بدل دعاءنا)، وذلك لغةٌ حجازية. وأما «لا تخيب» (على أنها فعل أمرٍ حقُّه الجَزْم وحذف الياء أيضاً لالتقاء الساكنين) فإنها خطأ فاحش. ويمكن أن يكون للبيت قراءةٌ أخرى «...فلا يَخيبَ...» فحينئذٍ يكون الفعلُ المضارعُ «يخيب» منصوباً بأنْ مُضمَرةٌ بعد فاء السببية (لأنه في جوابِ الطلَب). ثم إن شوارتز نفسَه استدرك قراءةً أخرى لهذا البيت (من مخطوطةِ باريس) وأثبت هذا الاستدراكَ في الديوانِ (١٤٢: ٢: ٢).

وأما حِجَجٌ أربعةٌ (بدل أربعٍ) وثلاثَ أسابيعَ (بدل ثلاثةِ أسابيع) فمن أخطاء الشاعر لا شكَّ في ذلك.

ثم إنّ كثيراً مما عدّه شوارتز من أخطاء عمر في اللغة أو في النحو راجعٌ في الحقيقة إلى جوازات الشعر. ومع أن جوازات الشعرِ الشاذّة عيوبٌ لا شكَّ في ذلك،

فإنها ألصَقُ في العادة بأخطاءِ النَظْم منها بأخطاء اللغة. من ذلك قولُ عمرَ مثلاً:

وإنّ لها دونَ النِساءِ لَصُحْبتِي وحِيطةِ والأشعارَ حينَ أشبِّبُ
- رخصةٌ حَوْراءُ ناعِمةٌ طَفْلةٌ كَأنّها قَمَرُ

إنّ خطفَ الحركةِ في حِيطة (مكان: حِيطتَي= حمايتي لها ومُحافظي عليها) وإشباع حركة العين في «ناعمة» (ناعيمة) وفي كاف «كأنّها» (كاأنها) من عيوبِ النظم لا من عيوب اللغة، ثم لا حاجةَ بنا إلى أن أتتبّع في «هذه الدراسةِ القصيرة» جميعَ أخطاء عمر- ما كان منها يقيناً وما كان منها مظنوناً، كما فعل شوارتز الذي أراد أن تكون دراسته لشعر عمرَ تامّةً من كلّ وجهٍ.

غير أن أستاذي الألماني، في جامعةِ ليبزغ، باوْلَ شوارتز، كان معذوراً في مَوْقِفِه المتشدّد من عُمر، وفيما غابَ عنه أيضاً في البيتين التاليين على الأقل(رقم ١٩٣، البيتان٧ و٨، الصفحة٢: ١٤٠):

قُلتُ فيمَ البكاءُ والحُزنُ؟ قالتْ: لِلّتي قد علقْتَ دونَ المُصلّى
وبَلَغنا، واللهِ، وصْلَك أخرى بعدَ عهدٍ. فقلتُ: يا عبدَ، كلّا

في هذينِ البيتين ثلاثةُ مآخِذَ:

(١) في «بلغنا» (وهي فعلٌ ماضٍ حقُّها البِناءُ على الفتح، وهي هنا بالسكون. فهذا خطأ من الشاعر) وقد مرّ الكلامُ عليها بالتفصيل (ص٧٦).

(٢) وصلك (منصوبة هنا، وحقُّها الرفعُ لأنها فاعل «بلغنا» (ولعلها خطأ مطبعي).

(٣) «علقت» ضبطها شوارتز بضمّ العين وكسرِ اللام المشددة (والصواب: فتح العين وكسر اللام بلا تشديد)، وهذه هفوةٌ من شوارتز.

ولكنّ أستاذي في الجامعة الأمريكيةِ في بيروت وزميلي في التعليم وصديقي في الحياة، الدكتور جبرائيل جبور، ليس معذوراً في الفصلِ القصير الذي ألْحَقَهُ بكتابهِ القيّم «حبُّ عمرَ ابنِ أبي ربيعةَ وشعرُه» (٤٨٤- ٤٨٧)، ثلاثَ صفحاتٍ تامّة وسمّاه «الإسفافَ في بعض شعرِ عمر»، إذ ألحّ أيضاً بالتضمين (صِلةِ بيتٍ من الشعر، من

حيثُ المعنى والتركيبُ بالبيت التالي له) ومثّلَ على ذلك بأبياتٍ منها:

فاسْتفزّتْ لقَوْلِه ثم قالت: لا، وربّي، يا بَكْرُ، ما كان مما
قِيلَ حرفٌ. فلا تُراعَنّ منه: بل ترى وصْلَهُ، وربِّيَ، حَنما

وفي تراكيب عمرَ ثلاثةُ أنواعٍ: جاهليٌّ قديم وقُرآني طَلِيّ ثم مُبتكَرٌ جديدٌ فيما زعموا.

أما الجاهليُّ القديم:

قُلتُ: كلّا، لاهِ ابنُ عمكِ، بل خِفنا أُموراً كُنّا بها أغمارا[١]

يقصد «للهِ عَمّك» كما في قول ذي الإصبع العَدْوانيّ في الجاهلية:

لاهِ ابنُ عَمِّكَ، لا أفضَلتَ في حسَبٍ عني، ولا أنتَ ديّاني فتَخزوني[٢]

ومثله (طلبَ السرابَ ولاتَ حين طِلابِ[٣]) وغيرُه كثير.

ثم هنالِكَ التراكيبُ القرآنية وهي في ديوانِ عمرَ أكثرُ من أن تحصى. وقد حَصَرَتْ هذه التراكيبَ في أبياتِ عمر التالية بين أهِلّة:

لما تَواقَفْنا وحَيِّيناهُما، ردَّتْ تَحِيّتنا (على استحياء)
(عجّلَ اللهُ قِطّهُن)، وأبقى كلَّ خَوْدٍ خريدةٍ قَبّاءِ[٤]
فابتُليتُ الغَداةَ منه بشيءٍ سلّ جِسْمي وعُدتُّ (شيئاً عُجابا)
تلك التي قالتْ لجاراتٍ لها حُورِ العيون (كواعبٍ أتراب)[٥]:

---

(١) الأغمار جمع غمر (بالفتح) لم يجرّب الأمور بعد.
(٢) الديّان: القاضي، الحاكم، المحاسب. أخزى فلان فلاناً: فضحه، أهانه (عاقبه).
(٣) السراب: ما يبدو من بعيد كأنه ماء. طلب السراب (ذهب في اتجاه السراب ليشرب). لات حين طلاب (لا فائدة من الطلاب: الذهاب غلى السراب للشرب).
(٤) القطّ (بالكسر): الحساب (يوم القيامة: عجّل الله قطهنّ: أماتهنّ قريباً.
(٥) الحوراء: العين إذا كان سوادها شديداً جداً وبياضها شديداً جداً، الكاعب: الفتاة إذا استدار ثدياها وبرزا. الترب (بالكسر): الذي له من العمر ما لغيره. الأتراب: الذين هم في سن واحدة (ولدوا في سنة واحدة).

اقـتُـليهِ قـتـلاً سَريحاً مُـريحـاً: لا تـكـوني عـليهِ (سَـوْطَ عـذاب)[١]،
أو أقِيدي؛ فإنما (النَفْسُ بالنفسِ) قـضـاءً مُـفـصَّـلاً في الـكـتـاب[٢]

والآياتُ الكريمة هي: ﴿وجاءتْه إحداهُما تمشي على استِحْياءٍ﴾ (٢٥: ٢٨، سورة القصص)- ﴿وقالوا: ربَّنا، عَجِّلْ لنا قِطَّنا قبلَ يوم الحساب﴾(١٦: ٣٨،ص)- ﴿وكواعبَ أتراباً﴾(٣٣: ٧٨، النبأ)- ﴿فصبّ عليهم ربُّكَ سَوْطَ عَذاب﴾(١٣: ٨٩، الفجر)- ﴿ولقد كَتَبْنا عليهم فيها- في التوراة - أن النفسَ بالنفس﴾(٤٥: ٥، المائدة).

أما التراكيبُ التي زَعَم الرُواة أنها وردتْ في شعر عُمر فهيَ المحصورةُ بينَ الأهِلَّة في الأبياتِ الآتية:

قـالَ لي: وَدِّعْ سُـليمـى ودَعْـهـا، (فـأجـابَ الـقـلـبُ): لا أسـتـطـيـعُ
وهـي مـكـنـونـةٌ (تحيَّر مـنـهـا في أديمِ الخـديـن مـاءُ الـشـبـاب
(ونفَّضْتُ عنّي النومَ) أقبلتُ مِشيةَ الحُبابِ وشخصي خِيفةَ القوم أزْوَرُ[٣]
يـشـهَـدُ الـرحمـنُ (لا يَجْـمَـعُـنـا سَـقـفُ بيتٍ) رجباً بـعـدَ رجبْ[٤]
نـامَ صَـحْـبي (وبـاتَ نَـومي أسيرا) أرقبُ الـنـجْـمُ مَـوهِـنـاً أنْ يَـغـورا[٥]
- بـعـثْـتُ وَليدَتي سَـحَـراً وقُـلـتُ لهـا: (خُـذي حَـذَرَكْ)

ثم هنالك بعضُ الضَعْفِ في التركيبِ عندَ عمر أعْزوه إلى أنّ عُمَر كان مُغرماً بالحُوار يَسوقُه في شِعره. وكذلك أراد أن يكونَ ذلك الحُوار في شِعره أقربَ ما يكون

(١) السريح: السهل، السريع، إذا أردت قتل محبّك فاقتليه قتلاً طبيعياً سريعاً ولا تعذيبه (قولي له: هجرتك، لا أريدك. ولكن لا تطعميه في وصالك ثم تؤجلي الوفاء بوعدك). السوط: حبل من جلد يضرب به. سوط عذاب: نصيب كبير متلاحق من التعذيب.
(٢) أقاد القاضي فلاناً بفلان: قتله جزاء لقتله غيره.
(٣) الحباب: الحية (جئت أزحف وأنا أحاول أن أخفي شخصي). أزور: مائل.
(٤) رجب: الشهر السابع من السنة الهجرية. رجباً بعد رجب: عاماً بعد عام (سنين كثيرة).
(٥) موهناً: بعد نصف الليل. يغور النجم يغيب، يغرب.

إلى الحديثِ الذي يدور بين النساءِ أنفسِهنّ عادة. من أجلِ ذلك كان في شعرِ عمر أشياءُ لا تُقِرّها اللغةُ الفصحى ولا يِرْضى عنها الاستعمال المألوف.

(٣) وجوه البلاغة:

ومعَ أنّ عُمر قد أجْرى شِعرَه على السليقة ولم يشأ أنْ يتكلّف فيه، فإنّ عنده وجوهاً من البلاغة لا نشكّ في أنها مقصودةٌ، وإلّا فكيفَ نُعلِّلُ روايةَ الزبيرِ بنِ بكّارٍ عن عَمّهِ مُصْعَبٍ أنّ عمر بنَ أبي ربيعةَ «فاق نُظراءه وبَرَعَهمْ» بثمانٍ وأربعينَ ميّزة «وكان بعد هذا كلّه فصيحاً!» فلنَترُكِ التشبيهَ والاستعاراتِ والمجاز، فهذه قديمةٌ قِدَم اللّغةِ العربيةِ المَرْويةِ، ولنَترُكْ أيضاً وُجوهَ علم المعاني في الخَبر والإنشاء (من الأمر والنَّهْي والتمنّي والنداء)، فهذه كلُّها من حاجاتِ المتكلم؛ وَلْنأتِ إلى «المُحسنّات» التي لا يُمكنُ إلا أن تكون مقصودةً لأنها«صِناعة»، وصَوْغُها يحتاج إلى تدبُّرٍ وإنعامِ نظر. أما الجناس (من المحسنات اللفظية) والطِباق (من المحسنات المعنوية) فأكثرُ مِن أنَ يُشارَ إليهما، فحَسبُكَ هذه الأبياتُ واعْتَبرْ ما حُصرَ بين الأهِلّة:

(صَرَمْتُ وواصَلتُ) حتى عَلِمْتُ (أَيـنَ المـصادرُ والمـوردُ)[1]
(عِـراقـيةٌ وتِهـامـيّ) الهـوى (يـغـورُ بـمـكّـةَ أو يُـنـجِـدُ)[2]
يا ليلَ إنّي، (واصلي أو فاصْرُمي)، عَـلِقَـتْ بحُـبِّـكُـم بـنـاتُ فـؤادي
عفَتْ عَرَفاتٌ فالمصائفُ من (هِندِ) فأوْحَشَ ما بينَ الجَريبين (فالنهْدِ)[3]
(قــرَّبــتني) إلى (قُــريــبــةَ) عَيْني يومَ ذي الشَّرْيِ في الهوى المُستعار
ذكّرتْني الديارُ (نُعْماً) وأترابـاً حِـسـانـاً (نـواعِـمـاً) كـالـصِـوارِ[4]

(١) صرم: قطع. واصل: صاحب. يقول: عاشرت أناساً كثيرين. مكان شرب الماء (من النبع أو النهر). المصدر: الرجوع عن الماء (بعد الارتواء). عرفت أحوال البشر.

(٢) تهامة: أرض منخفضة. هي من العراق، وهو من تهامة (ساحل الحجاز)، ولذلك تراه مرة ينزل إلى الوادي ومرة ينجد (يرق إلى الجبال). هو يتبع المحبوب إلى كل مكان.

(٣) عفا الأثر: امّحى، زال. هند انتقلت من عرفات ومن المصائف فأوحش (خلا من السكان). الجريب: اسم واد. النهد: المكان المرتفع. يقول: لما انتقلت هند من عرفات (انتهى حجّها) أصبحت عرفات وكل ما حولها كأنها خالية من السكان.

(٤) الصوار: القطيع من بقر الوحش (الغزلان).

بُدِّلَ الرَبْعُ بعد (نُعْمٍ) (نَعاماً) وظِباء يَخِدْنَ كالأمهارِ[١]
ما شَجاكَ الغَداةَ من رَسْمِ (دار) (دارس) الربع مثل وحي السطار[٢]

وعلى كل حال، فإن«الجِناس» في شعرِ عمر أقلُّ من«الطِباق». أما مُراعاة النظير، نحو(الصَبْر والجلد، والسمْعُ والبصر) فكثيرةٌ جداً.

ثم إننا إذا قُلنا إن هذا كلّه قد يأتي عفْواً ويجري على السليقة، فإن«التقسيمَ»الذي أشارَ إليه ابنُ رشيقٍ في «العُمدة» من قولِ عمر:

تَهيمُ إلى نُعْمٍ: فلا الشمْلُ جامعٌ ولا الحبلُ موصولٌ ولا أنتَ مُقْصِرُ
ولا قُرْب نُعْمٍ (إن دَنتْ) لك نافعٌ ولا نأيُها يُسلي ولا أنتَ تَصْبِرِ

لايمكن إلا أن يكون عن صِناعة وقَصْد.

(٤) الأوزان والقوافي:

إن أكثر الشعر القديم منذ الجاهلية إلى عهد عمر كان ينظم على أوزان طويلة تامة كالطويل والبسيط والكامل في الأكثر.

وكان يُستَحبُّ في الشاعر أن يكونَ طويل النَفَس كي تكونَ قصائده«مطوّلاتٍ». أما القوافي فكانت تُبنى في الأعم الأغلب على الرَويِّ الذي تكثُرُ فيه المفردات كالباء والراء واللام والميم والنون. ولد كان نفرٌ من مُعاصري عمرَ أيضاً، كالأخطل والفَرزْدقِ وجريرٍ، يُمثّلون هذا التقيُّد بالأوزان الطويلة المشهورة تمثيلاً واضحاً، ورُبما زادوا فيه على الجاهليين أيضاً. أما عمرُ نفسُه فكان في هذا البابِ كثيرَ التحرّر من القصائد الطِوال وأكثرَ مَيْلاً إلى المُقَطّعاتِ وإلى الأوزان المجزوءة.

(١) الربع المكان المأهول (المسكون) كان فيه بشر، فأصبح (بعد رحيل نعم عنه) ليس فيه إلّا الحيوانات (النعام والظباء). وخد: سار مسرعاً بخطوات واسعة. الأمهار جمع مهر (بالضم): ولد الحصان. وخد الرجل كالمهر: سار بنشاط وخفة.

(٢) شجاك: حزنك وأحزنك. الرسم: أثر البناء بعد زوال البناء، دارس: ممحوّ. الربع: المكان المأهول (المسكون). السطار= أسطار جمع سطر: كلمات يتلو بعضها بعضاً في نسق (ترتيب) واحد. الوحي: الكتابة، (والمقصود هنا): بقية الكتابة التي محي بعضها.

إن شوارتز قد خَصّ العَروضَ (الأوزانَ والقافية) في شِعر عمرَ بفصلٍ واف (القسم الرابع ١٧٣- ١٩٥).

نَظمَ عمرُ على اثنَيْ عشَر بحراً هي بحَسبِ تساقُطِها من الأكثر إلى الأقل: الخفيفُ تاماً (فاعِلاتُنْ مُستَفعِلُنْ فاعلاتنْ) ومجْزوءاً (فاعِلاتُنْ مَفاعِلُ) ثم الطويلُ (فعُلُنْ مفاعيلُنْ فعلون مفاعل) ثم الكامل تاماً (مُتفاعِلٌ متفاعل متفاعل) ومجزوءاً (متفاعل متفاعل) ثم البسيطُ (مستفعلن فاعلن مستفعلن فعِلُنْ) ثم الوافر تاماً (مُفاعَلَتُنْ مفاعلتن فعولن) ومجزوءاً (مفاعلتن مفاعلتن) ثم الرَمَل تاماً (فاعِلاتُنْ فاعلاتن فاعلات) ومجزوءاً (فاعلاتن فاعلاتن) ثم المتقاربُ (فعُلُنْ فعلون فعلون فعلون) ثم المُنسَرِحُ (مستفعلن فاعلات منفعلن) ثم المديدُ (فاعلاتن فاعِلنْ فاعلاتن) ثم السريعُ (مستفعلن مستفعلن فاعلن) ثم الرَجَزُ (مستفعلن مستفعلن مستفعلن) قطعةً واحدة، ومجزوءاً (مستفعلن مستفعلن) ثم الهَزَجُ (مفاعِيلنْ مفاعلين).

ومالَ عمرُ بنُ أبي ربيعة إلى المقطّعات ميلاً ظاهراً، ولكننا لا نستطيعُ أن نقومَ بإحصاء نِسبيّ بين المطوّلات والمقطّعات في ديوانه، لأن ديوانَه، لم يَصِلْ إلينا كاملاً ولأننا أيضاً لسنا على ثِقة من طولِ المقطّعات. فكما أن أشعار عمر لم تصِل إلينا كلُها، فإن القصائدَ والمقطّعات لم تصِل إلينا في الأغلبِ- من حيثُ الطول- كما كانت في أيام عمر.

ومن مقطّعاتِ عمر المجزوءة القطعةُ التالية:

صـــادَ قــلـــبي اليومَ ظـــبْيٌ مُـــقـــبِــلٌ مـــن عَـــرَفــاتِ[١]،

في ظـــبــاءٍ تـــتـــهـــادى، عـــامـــداً لـــلـــجَـــمَـــرات[٢]،

---

(١) عرفات: هضبة في عليها الحجاج (في تاسع ذي الحجة). مقبل من عرفات: انتهى من الركن الأهم في الحج.

(٢) تهادت الفتاة: سارت وهي تتبختر (تتمايل من الدلال والنشاط). عامداً: قاصداً. للجمرات (لرمي الجمرات) بعد النزول من عرفات يتوجه الحاجّ إلى المحصب (بضم ففتح فصاد مشددة مفتوحة) لرجم إبليس.

وعَليْهِ الخَزُّ والقَزّ (م) ووَشْيُ الحِبَرات[1]
إنني لستُ بِناسٍ ذلك الظبْيَ حياتي

ولا يغيبُ عن الدارسِ- فيما يتعلق بالقافية في شِعر عمر بنِ أبي ربيعة- عددٌ من الملاحظات:

يرى شوارتز (٤ : ١٨٨- ١٨٩) أن عمرَ بنَ أبي ربيعة شديدُ العِنايةِ بالتَّقْفِيَةِ (بتخيُّر القوافي لأبياته). غير أن ذلك ليس راجعاً، كما يقول شوارتز، إلى فضلِ عمر(في مقدرِته الشِعرية) فقط، ولكن إلى احتكاكهِ أيضاً بالجوّ الأدبيّ الذي كان في ذلك الزمنِ حولَه. وكان عمرُ يتجنّبُ القوافي الضيّقة ويميلُ إلى القوافي الرَحْبةِ التي يَجدُ لها كلماتٍ كثيرة في القاموس. إنّ أكثرَ قصائدِ عمر مَبنيٌّ على «الراء». ثم تأتي، في مَقام الكَثرة، اللامُ والميمُ والنون والدال. وفي الديوان الذي بين أيدينا أربعةُ أبياتٍ على الثاء (بثلاثِ نُقَطٍ) هي القِطعة ذاتُ الرقم ٣٥٢. وليس فيه على الزاي أُختِ الراء وعلى الشين المُعجمة والطاء والظاء والغين المعْجَمة شيء.

ثم إنّ الغالبَ على قصائدِ عمر، وعلى مُقطّعاتِه أيضاً، أنها مُصرَعةٌ (مختومةُ الصَدْر والعَجُزِ في مَطالِعها بقواف):

أمِنْ آلِ نُعْمٍ أنتَ غادٍ (فمُبكِرُ) غداةَ غدٍ أم رائحٌ (فمُهجِّرُ)[2]
تهيمُ إلى نُعْمٍ، فلا الشملُ جامعٌ ولا الحبلُ موصولٌ ولا أنت (مُقصِر)

ولكنّ هنالك، مثلاً قصيدةً عِدّةُ أبياتها ستةٌ وثلاثين، وهِيَ غيرُ مصرّعة:

يقولُ خليلي، إذ أجازتْ حُمولُها خوارجَ من شَوطانَ بالصبرِ (فاظفَرِ)[3]

---

(١) الخزّ: نسيج من صوف وحرير. القز: الحرير. الحبرة (بكسر ففتح) ثوب من حرير أسودُ اللون. الوشي: الزخرف والتزيين.

(٢) غاد فمبكر (مسافر باكراً في الصباح). رائح (ذاهب بعد الظهر) فمهجّر (في وقت الهجير: اشتداد الحر).

(٣) الحمول جمع حمل (بالكسر): ما يحمل على الدابة، الهودج، التي تحمل أشياء في أثناء السفر. أجاز فلان دابته: قادها أو ساقها حتى قطعت المكان الذي يقف فيه المودعون أو الناظرون. شوطان: اسم مكان.

فقلتُ له: ما مِنْ عزاءٍ ولا أسىً بمُسْلٍ فؤادي عن هَواها (فأقْصِر)[(١)]

والتصريعُ في ديوانِ عمر، بروايتهِ التي بين أيدينا، كثيرٌ جداً. وربما أتى عمر بالتصريع في المقطعاتِ ذواتِ الأبياتِ الأربعةِ وذواتِ البيْتينِ أيضاً. وفي الديوان بيتٌ مُفرَدٌ (رقم ٣٨٥) مصرّع.

ومن المقطعات ذواتِ الأبياتِ الأربعة، وهي مصرّعة، ثلاثٌ أرقامُها: ١٦٢- ٢٠٣ - ٣٨٠. أما ذواتُ الأبياتِ الثلاثة فهي سبْعٌ أرقامُها: ٢٧٢- ٣٧٩- ٤٠٨- ٤٢٥- ٤١٦- ٤٤٠- ٤٤٦. وأكثر منها المقطعاتُ ذواتُ البَيتين. إنها تِسعٌ: ٢٩٤- ٣٥٢- ٣٦٠- ٣٦٥- ٣٧١- ٤٠٦- ٤١١- ٤٢٥- ٤٣٥. فمن ذلك كلّه مثلاً (رقم ٢٩٤):

أيُّها العاتبُ فيها، (عصيتا): أنْ تُطاعَ، الدهرَ، حتى(تَموتا)
إن تكنْ أصبحتَ فينا مُطاعاً، فَلكَ العُتبى بأن لا (رَضيتا)[(٢)]

غيرَ ان هذا كلّه لا يَجِبُ حُكماً لازماً، وإن كان يُنيرُ الطريقَ إلى رأيٍ مقبول: لعَلّ هذه المقطعاتِ كلّها، أو لعلّ أكثرها، كان في الأصلِ قصائدَ لم يَصِلْ إلينا منها سوى هذه الأبيات أو لعلّها كانت مشاريعَ(مبادىء) قصائدَ، أعْني قصائدَ بدأها عمرُ ثم لم يَتفِقْ له أن يُتمّها، كما يتفقُ مِثْله لأكثر الشعراء أو لجميعِ الشعراء.

ثم إنّ كثرَ النَّصْرِ في قوافي عمرَ لا يُدلّ على أنّ عمرَ كان شديد العِنايةِ بالتَقفِيَةِ، كما ذكر شوارتز (٤ :١٨٨). في ديوان عمر مُقطّعاتٌ على النون الساكنة: الحسَنْ، الحزَنْ، ثَمَنْ، إذَنْ، الخ. ففي إحدى هذه القطع (رقم ١٢٠) تأتي الأغنّ(بتشديد النون) فيُهمِلُ عمرُ التشديد، وهذا عيبٌ في الشعرِ وخطأ في اللغة. وأبعدُ من ذلك في الخطأ جَعْلُه «مُعَنّى» (بنون مشدّدة وألف مقصورة بعدها) «مُعَنْ» (بنون ساكنة بلا تشديد

---

(١) الأسى هنا: التأسّي: أن يهون الإنسان مصيبته بأن يقيسها بمصيبة غيره. بمسل فؤادي عن هواها (بأن يجعل قلبي يسلو: ينسى هواها).أقصر الإنسان: ترك المبالغة (في الحزن أو الفرح أو السعي).

(٢) العتبى: الرضا. فلك العتبى= لك منا أن نرضى (نسرّ) بأنك غاضب.

تضوَّعَ مِسكاً بطنُ نَعْمان إذ مشَتْ ... بــه زيْــنــبٌ في نِــســوةٍ عَــطِــراتِ

يُخَبِّئنَ أطرافَ البنانِ من التُقى ... ويقتُلْن بالألحاظ مُقتَدراتِ

لم يُخالف النميريُّ الأمويُّ ما فعله امرؤ القيس الجاهليُّ. ولكنّ الشعراء العباسيينَ- والشاعرُ العباسيّ شاعرٌ مُحْدثٌ ثائرٌ على القديم، إذا كان هذا التعبر يسرُّكَ- لم يَتقيّدْ بالقاعدةِ الرصينةِ، بل عدَّ التاء- مهما يكُنْ نوعُها- حرفاً صالحاً لأن يكون رَوياً.

وموقفُ عمر بنِ أبي ربيعة من مجيء الضمائرِ والزوائدِ في القافيةِ كان الذي يلي:

عدّ عمرُ الهاء (إذا كانت ضميراً مُتصلا للمُفردِ الغائبِ) زائدةً مُطلقاً في مثل قولِه (رقم٤٨):

صَدَر الحبيبُ فهاجني صَدَرُه؛ ... إني كذاك تَشوقُني ذِكَرُهْ[1]

فاعتمد الراءَ رَوياً: نظرُهْ، بشرُهْ، قمرُهْ الخ. وقد سَلَك هذا المسلَك نفسَه في المقطعات التي كانت قوافيها: نشاصُهْ (رقم ٣١٢) فهي على الصاد، ثم ما كانت قوافها مثل مَطَلُهْ (رقم ١٩٥)، إسبالُهُ (١٩٤)، أجمالُهُ (رقم ٤١٥)، عَلَمُهْ (رقم ١٠١) فالرويُّ فيها كلِّها هو اللام. ثم هنالك القطعة (رقم ٢٤٠) ومطلعها: «ما بال قلبك عادة أطرابُهُ»؟ (وهي عَشرةُ أبياتٍ) مبنيةٌ على الباء المُوحّدة من تحتها، ومثل ذلك المقطوعة (رقم١١٦): «بعدَ الهُدوءِ تَهيجُه أوطانُهُ» فإنها مبنية على النون.

وأما إذا كانتِ الهاءُ ضميراً متصلاً للغائبة المفردة، فلأمرُ يختلفُ قليلاً. هنالك مُقطعاتٌ مطالعها: «حيّ...أسماء قبل ذهابها» (رقم ٢٠٩) و«تذكّرتُ هِنداً وأعصارَها» (رقم ٣٨٠)، و«دعاني إلى أسماءَ...كان وقْفاً جِمامها» (رقم ٨٥)، و«بوجْرةَ أطلالٌ تعفّتْ رسومُها» (رقم٨٦)، فإنّ الهاء الضميرَ مُهملةٌ فيها كلِّها، والرويُّ فيها الباءُ الموحَدة من تحتِها والراء والميم(مرّتين).

غير أنّ هنالك قِطعتين: «تأوّبَ عينَه وهْناً قَذاها» (رقم ٣١٠) و«لِعائشة... حِمىً

---

(١) صدر: انصرف، ذهب (سافر).

في القلبِ ما يُرعى حِماها» (رقم ٣٣٨) بناهما عُمر على الهاء، فإن قوافيهما: شَفاها، عَراها، سِواها... رُباها، يَداها الخ.

أما القطعتان ذَواتا القافية «حُجْرَتُها وأطْرَيْتُها» (رقم ٣٥٠و٣٥١) فيأتي الكلامُ عليهما في القافيةِ حينما تكون تاء الضمير، فيما يلي.

وقَبِلَ عمرُ تاء الضمير «رَوِيّاً»، فالقِطعةُ التي مطلَعُها «ورجائي على التي قَتَلتْني» (رقم ٤٣٧) ثلاثة أبياتٍ قوافيها: قتلتني، نفعتني فدحَتْني. والقِطعة ذاتُ الرقم ٢٩٤ مصرّعة وقوافيها ثلاثٌ: عُصيتا (التاء ضمير)، تموتا (التاء أصيلة)، رَضيتا (التاء ضمير). ثم تأتي القطعتان ٢٩٣و٢٩٥ ورويتهما (التاء)، وجميعُ قوافيها مختومةٌ بتاءِ الضمير على أنها رويٌّ، باستثناءِ كلمةِ سَبْتٍ (يومِ السبت) في القطعة الأولى.

ويظهرُ الجِدُّ على القِطعة ذاتِ الرقم ٣٥٠ ومطلعُها:

ولــقــدْ قــالــتْ لأتــربٍ لهــا كالمَها يَلعَبْنَ في حُجرتِها:...[1]

فإنّ قوافيَها الباقيةَ: قُبّتِها، مِشيتها، حُلّتها، رميتِها، فالتاءُ هنا هي الرويُّ، وهي من أصل الكلمة: إما في الاسم المؤنث (حُجرة وقُبّة وحُلة) وإمّا في المصدر المرة (رميتها- وقد ضَبطها شوارتز بالفتح) وإما في المصدر النوع (مِشيتَها).

وكذلك يظهَرُ هذا الجِدُّ على المقطوعة ذات الرقم ٣٥١:

مــن الــبَــكَــراتِ عِــراقــيّةٌ تُــسـمّــى سُـبيعـةَ أطـرَيْـتُـهـا[2]،

فالرويّ هنا هو الياء (المثناة من تحتها)، وسائرُ القوافي: أصْفَيتُها، أرضَيتُ ١٨، لاقَيْتُها، داويتُها.

وفي ديوانِ عمر تِسعُ قِطَعٍ على الكاف، جَعَل عمرُ الرَويَّ في ستٍ منها كافَ

(١) الأتراب (جمع ترب، بالكسر): الذين هم في سن واحدة. المها جمع مهاة: بقرة الوح (غزالة كبيرة الجسم بيضاء واسعة العينين). الحجرة (هنا) حظيرة الحيوان. المقصود: هؤلاء الفتيات الأتراب يشبهن المها التي تلعب في مكان سكناها (مسرورة تقوم بلعبها الذي تألفه بحريّة).

(٢) البكرة (بفتح فسكون): الفتية من الإبل (هنا: الفتيات الصغيرات في السن). أطريتها: مدحتها.

الضميرِ وحدَهُ: سِواك، يَداك، ذاك، هواك، نعاك (ضميرَ جرّ أو ضميرَ نصْب)، وهنالك قِطعتان جاءت في إحداهما (رقم ٣٢٢) كلمة شراك (السَيْرُ الذي تُربَطُ به النعل)، كما جاءت في الأخرى (رقم ٢٢٧) كلمتا السِماك والمَساك (وهما اسْمانِ) إلى جانبِ الكلماتِ المختومةِ بكاف الضمير.

وهنالك قِطعةٌ واحدةٌ (رقم ٣١٧) مشهورة هي:

بـعـثـتُ وَليدَتي سَحَراً ... وقُلتُ لها: «خُذي حذرَكْ[1].

وقولي في مُعاتَبَةٍ ... لِزَيْنَبَ: نَوِّلي عُمرَكْ[2].

فإن داوَيْتِ ذا سَقَمٍ ... فأخزى اللهُ مَنْ كَفَرَكْ».

فهزّتْ رأسها عَجَباً ... وقالتْ: «مَنْ بِذا أمَرَكْ؟

أهذا سِحْرُكَ النِسوا ... نَ قد خَبّرْنني خَبَرَكْ،

وقُلنَ: إذا قَضَى وَطَراً ... وأدرَكَ حاجةً هَجَرَكْ».

أنّ عُمر هنا جَعَلَ الراء رَوِيّاً. وهذا هو المسلَكُ المقبولُ في علمِ القافية.

ومثل هذا الموقفِ الرصين وَقفهُ عمر في القطعة التي مطلعُها(رقم٣٢٣):

أأنكَرْتَ مِن بعدِ عِرفانِكا ... منازلَ كانت لجيرانِكا؟

فهذه القِطعةُ ثمانيةَ عَشَر بيتاً بُنيَت على النون: إعلانكا، عصيانكا، أوطانكا، شانكا، إلخ.

وفي ديوان عمر قطعةٌ (رقم١١٨) هي أحَدَ عَشَرَ بيتاً يدو أن عُمر بناها على النون، ولكنها في الحقيقة مَبنيةٌ على ياء الفعل المضارع: تُحيّينا، يُبكينا، يَجزينا، إلخ ولكنّ فيها قافيتين: «حِينا» (وهي نون حتماً) ثمّ «فينا» (حرف جرّ مع ضمير). ثم يأتي على رويّ الياء الساكن قطعتان (رقم ٤٣٥):

(١) الوليدة: الفتاة الخادم (التي تخدم الناس).

(٢) نوّل فلاناً: أعطاه (ما يرغب).

أيضاً)، فما أفدحَ هذا الخطأ! وكثيراً ما يجتمعُ في القصيدة الواحدةِ عند عمرَ قوافٍ مثل جيران وأزمان (رقم ١٣٣) ولسان وميزان (رقم١٣٤). ومعَ أن هذا من عيوبِ القافية (بأن يكونَ بيتٌ مؤسّس بالياء وآخرُ مُطلقاً من التأسيس- وهذا يتعلّق بموسيقى اللفظِ)، فإن مِثلَه قد وَرَد أحياناً عند نفرٍ من فُحولِ الشعراء كأبي تمامٍ وابنِ الرومي والمتنبي.

لِنتنقِلِ الآن إلى الضمائرِ في القافية. فما موقفُ عمرَ بنِ أبي ربيعة منها؟لِنبْدأ بالملاحظة التالية:

الرَويُّ هو الحرفُ الذي تُبنى عليه القصيدة. يقول الأفوَهُ الأوْديُّ في الجاهلية:

لا يصلُحُ الناسُ فوضى لا سَراةَ لهم ولا سِراةَ إذا جُهّالهم سادوا
تُهدى الأمورُ بأهلِ الرأي ما صَلحَتْ فإنْ تَوَلّتْ، فبالأشرارِ تنقاد

الدالُ هنا هي الرويُّ. وأما القافية، في البيت الأول، فهي «سادوا».

والمفروضُ في «الرويّ» أن يكونَ حرفاً أصيلاً في الكلِمة، لا حرفاً من الزوائد عليها: فلا الضمائرُ (ا،و،ى،هـ،ها،ك،ت) ولا الحروفُ عامّةً (ألف الإطلاق،تاء التأنيث، علامةُ جمعِ المؤنث السالم: ا ت) تصلحُ أن تكونَ روياً في الشعر الرصين.

قال امرؤ القيسِ الجاهليّ:

ظَلِلتُ رِدائي فوقَ رأسيَ قاعدًا، قاعداً أعُدُّ الحَصى ما تَنقضي عَبَراتي؛
بِليْلِ التمامِ- أو وُصِلْنَ بمِثله- مُقايَسةً أيّامُها نَكِراتِ[1]

والقصيدةُ خمسةَ عشرَ بيتاً جميعُ قوافيها «ـــرات» (فالرويُّ فيها هو الراء)، لأن الألف والتاء علامةٌ للجَمع وليست من أصل الكلمة حتى تصلُحَ رَوِيّاً.

وفي العصر الأمويّ قال محمدُ بنُ عبدالله النُميريُّ:

(١) ليل التمام: الليلة التي يكون فيها القمر تاماً (بدراً). تلك الليلة (ليلة اللقاء) كانت مثل ليلة البدر، إذا قارنتها بتلك الليالي (التي لم ألق فيها المحبوب). أيام هذه الليالي التي لم ألق فيها المحبوب كانت نكرات (منكرة، غير محبوبة).«نكرات»، هنا، تعرب حالاً (من أيامها).

فقلنا- طليعةُ الشعرِ المُحْدَثِ في العَصر الأموي. ولكن هذه الدراسة القصيرة لا تحتملُ من هذا الموضوعِ أكثر مما جاء هنا.

(٥) الإيجاز:

في شِعرِ عُمر إيجازٌ كثيرٌ يَصِلُ أحياناً إلى حدّ الإخلالِ (قِلّة الألفاظِ بالإضافةِ إلى المعاني حتى تَقصّر تلك الألفاظُ عن التعبير عن المعنى المُراد). كان عمرُ لا يستعملُ من الكلمات إلّا القَدْرَ الذي تحتاجُ إليه معانيه- وربما أشار إلى المعاني إشاراتٍ فقط. من أجلِ ذلك كثُرَتْ في ديوانه المُقَطَّعاتُ وقلّتِ القصائدُ. إنّ عمر يَقِفُ في قصائدِه الطوال القليلةِ وفي مُقطَّعاته القصار الكثيرة عند انتهاء الموضوع أو عند ختام الحادثة: لقد أراد عمر أن تكونَ كلُّ قصيدةٍ (وكلُّ مقطوعةٍ) حكاية لمغامرةٍ غرامية أو عَرضاً لِفكرة غزَليّة أو صورةً لحالٍ عاطفية، على غايةٍ من الإيجاز. ولقد عَرَف الأقدمون له ذلك فقالوا إنه يقصد للحاجةِ ويختصِرُ الخبر، كما كان قليل الانتقال من موضوعٍ إلى موضوع.

هذا الإيجازُ البالغُ قد خَرَج بشعرِ عمر عن شكل القصيدةِ القديمة. فذِكْرُ الأطلال في قصيدة عمر قليلٌ، والخمرُ مفقودةٌ[١] والصيدُ كذلك، والفخرُ لا يكادُ يُلحَظ. والقصيدةُ كلُّها-مهما تَطُلُ- في موضوع واحد. غير أن المبالغةَ في الإيجاز أحياناً ثم الانصراف إلى الاهتمام بالغَرَضِ وحدَه ومُحاولة التعبير عن دقائق ما يجولُ في النفسِ، كل تلك قد جعل عدداً من معاني عُمر يغمُض وعدداً آخر من صُور عُمر يَغيم.من ذلك مثلاً، هذه الأبيات التالية (كما هي مشكولةٌ في الديوان بتحقيق باوْل شوارتز):

فأتيْتُهمْ عِندَ العِشاءِ مُخاطِراً حَـذِرَ الأنـيسِ وليس شيئاً يَـسمَـع[٢].

---

(١) إذا نحن وجدنا في ديوان عمر بيتاً مثل البيت التالي (رقم ٢٢٦، ص ١٦١):

ذكـرت بـه هـنـداً، وظـلـت كـأنـني أخـو نـشـوة لاقِي الحـوانـيت فـاغـتـبـق

(الحانوت: مكان بيع الخمر: شرب الخمر مساء). فليس معنى ذلك أنه كان لعمر خمريات.

(٢) مخاطراً: مجازفاً. حذر الأنيس (وأنا أحذر أن يراني أنيس: أحد يأنس بي، يعرفني). وليس شيئاً يسمع (؟):... (وليس حذر شيء أخاف أن يسمع عني). ويجوز أن يكون المقصود هو العكس: لا أحبّ أن يسمع بخبر مجيئ أحد.

قالت الكبرى: «أتعرِفْنَ الفتى؟» قالتِ الوسطى لها: «هذا عمرْ!»
قالتِ الصغرى، وقد تيَّمْتُها: «قد عَرفناه، وهلْ يَخفى القمر؟»[١]

(٨) موافقة شعره للغناء:

هذه الخصائصُ التي ذكَرْنا جعلتْ شعر عمر مُوفقاً للغناء، وجعلته في الدرجةِ الأولى بين الأشعار المطاوعةِ للألحان. إن المغنين كانوا يسألون عمر أن يصنعَ لهم «أصواتاً» ليغنّوها. ولقد أجابَهم عمر إلى ذلك. ولما اجتمع المغنّون- في أيام الرشيد- على ثلاثة أصواتٍ (مُقطعات شِعرية للغناء) نالَ صوتٌ منها لعمر المرتبة الثانية. ثم إن «الأصواتَ» في شعره- مما يتّضح من مُراجعة كتاب الأغاني- أكثرُ منها في شِعر كلّ شاعرٍ آخرَ.

وهناك مَيْزةٌ أخرى جعلتْ شعرَ عمر شديد الموافقة للغناء، تلك أن شعره مطاوعٌ للألحان المختلفة، أي يقبلُ الألحانَ المختلفة، وهذا عند المغنّين أمرٌ جليل. وقد رَوى صاحب الأغاني (القرنَ الهجريّ الرابعَ) أنّ في قولِ عمر:

تشطّ غداً دارُ جيرانِنا، وللدّارُ بعدَ غدٍ أبعدُ[٢]،

تسعةَ عشرَ لحناً.

(٩) الحُوار:

الحُوارُ سِياقة الكلام على الألسنة، أو نَقلُ الحديث بين المتخاطبين، كقولِ عُمَر مثلاً:

زعَموها سألتْ جاراتِها - وتعَرّتْ ذاتَ يوم تَبْترِدْ -[٣]:
«أكما ينعَتُني تُبْصِرْنَني - عَمْركُنّ اللهَ- أم لا يقتصدْ؟-»[٤]

---

(١) تيّم الحب فلاناً: أمرضه.

(٢) تشطّ (بكسر الشين أو بضمها).

(٣) ابترد: اغتسل بالماء البارد (واستحمّ: اغتسل بالماء الحميم: الحار).

(٤) يقتصد: يعتدل (لا يبالغ).

فتضاحكْنَ، وقد قُلْنَ لها: «حَسَنٌ في كلّ عينٍ من تودّ».
حَسَدٌ حُمِّلْنَه من شأنها وقديماً كان في الناسِ الحسدْ
قلت: «من أنتم؟» فقالت: «أنا من شفّه الحزن وأضناه الكمد..»[1]

هذا النوعُ من الحوار المنقولِ بين الشاعر وحبيبته أو بين أشخاصٍ آخرين معروفٌ منذُ الجاهلية، ولكنّ ميزة عمر فيه أن بَسَط فيه القول وأكثر منه، ثم ألقى عليه طلاوةً وكان لَبِقاً في تصريفه. وإذا كان الحوارُ قد وردَ عَرَضاً عند نفرٍ من الشعراء أو جاء في أشعارِهم قدرٍ فإنّ عمرَ قد قصَد إليه وجعله غايةً في قصائده. فالحوارُ بارزٌ في شعرِ عمر، وهو فوق ذلك عذبٌ طليٌّ. ولقد زادَ عمرُ فيه فأخذه عن ألسُنِ النساء، والحِجازياتِ منهن خاصةً، ولم يتحوَّبْ في أن يُضَمِّنه عدداً من تراكيبِ العوامّ من النساء ما دام يُجريهِ على ألسِنتِهنّ. أضِفْ إلى ذلك كلّه خِبْرتَه بعقلية المرأة ونفاذه إلى سحر حديثها.

(١٠) أسلوب عمر:

يبدو لنا من كلّ ما تقدّم من قبلُ أن أسلوبَ عمرَ قَصَّصيّ، بعض قِصَصِهِ واقعة وبعضها مُختَلَق، وعمر يسوق الأحاديث بينه وبين محبوبته أو يجعل الفتيات أنفسهن يتحاوَرْن وأحياناً يُدير الحديث بين أنواع الجماد. كل ذلك يفعله عمرُ بألفاظ يميل بها إلى الفصاحة وتراكيبَ تمتازُ عموماً بالمتانة ولفظٍ عليه طلاوةٌ وفيه حلاوةٌ حتى أتى شعرُه شديدَ الموافقة للغناء. ولقد طَرَق عمر فناً واحداً من الشعر: الغزلَ الصريح، قصَر شعرَه عليه ووقَف بالأبيات حيث تنتهي المعاني من غير أن يَعبأ دائماً «بشكل القصيدة» على ما عرفَه الشعر القديم ــ في الجاهليةِ وصدر الإسلام ــ.

الجديد والقديم في شعر عمر:

نرى مما تقدمّ أن الفن الذي امتاز به عمرُ دون سائرِ الشعراء هو «الغزلُ

---

(١) شفّه الحزن: أنحله (جعله ناحلاً) وأضناه الكمد (شدة الحزن ومرض القلب): جعله نحيلاً جداً.

كـانَ لي، يـا سُـقيرُ، حُـبُّكِ حَيْنا كـاد يَـقـضي عـليّ لمّـا الـتَـقـيْنا[١].
يـعـلـمُ الـلـهُ أنّـكـم-لـو نـأيْـتُـمْ أو قَـرُبْـتُـم- أحـبُّ شيءٍ إلينـا

ومثلها القطعة (رقم١٤٢):

لم تَـرَ الـعـينُ لـلـثُرَيّـا شَـبـيهـاً بـمَـسيلِ الـتِـلاعِ لمّـا الْـتَـقـيْنا[٢].

وهي سبعةُ أبياتٍ سائرُ قوافيها الستّ: إلينا، اعتدَيْنا، اشتَفَيْنا، اقتَضيْنا، نَوَيْنا.

ومما يَلفِتُ النظرَ قطعةٌ عِدّةُ أبياتِها عَشرةٌ (رقم٢٣٢):

قـال الخـليطُ: غـداً تـصـدُّعُـنـا أو شَيْعُـهُ، أفـلا تُـشيِّعُـنـا[٣]؟
أمـا الـرحـيـلُ فـدونَ بـعـد غَـدٍ، فـمـتى تـقـولُ الـدارُ تجـمَـعُـنـا؟

وسائرُ القوافي، في هذه القِطعة: فاجِعنا، تراجعنا، شائعنا، مانعنا، شافعنا، تخادعنا، واسعنا، تقاطعنا. يبدو هنا بوضوح أنّ عمر لم يَعُدَّ النونَ حرفَ رويّ بلِ العينُ.

ومن الإقواء (الاختلاف في حَركة القافية) قول عمر (رقم٤٣٨):
إنّ لي عـنـدَ كـلِّ نَـفـحـةِ رَيْحـا نِ مـن الجُـلّ أو مـن الياسمـينا،
الـتِـفـاتـاً ورَوْعـةً لـك أرجـو أن تـكـوني حـلَـلْـتِ فـيمـا يَـلينـا

إنّ كلمةَ «الياسمين» مجرورةٌ فلا يجوزُ أن تأتيّ معَ الكلمة«يلينا»، ولكن عمرَ أثبتَ كلمة «الياسمينا» منصوبة لِتَجْريَ مجرى يَلينا، وذلك خطأ (هذا إذا كان البيتانِ لعمرَ). ثُم إنّ «الجُلّ» (بجيم فارسيّة هو الوَرْدُ) وفي رواية لهذا البيت نَجِدُ كلمةَ «الورود» مكان كلمة«الجل».

إنّ «صناعةَ النظم» في ديوان عمر مُهمّةٌ جِداً، لأن عمرَ - كما سبق لنا القولُ

---

(١) سقير (بالتصغير) اسم. الحين (بالفتح): الموت.
(٢) التلعة: المكان ينحدر منه الماء.
(٣) الخليط: الساكن مع آخرين. التصدّه: التفرق. الشيع: التشييع، التوديع. تصدّعنا أو شيعه: إما أن نفارقه نحن أو أن يسافر هو فنشيّعه (نودّعه) نحن.

الصريح» الذي يجري في حوار، ولكن لا بمعنى أنه ابتكره وسبَق الناس إليه، بل بمعنى أنه قصَد إليه وقصَر عليه همّه وشعرَه، ووسّع القول فيه واشتق منه فُنوناً وألواناً، واقتنص فيه معانيَ كثيرةً.

إن كثيراً من خصائص عمر معروفٌ منذ الجاهلية وبعضُها خصائصُ جاهليةٌ بَحْتٌ، وبعضُها الآخرُ كان متداولاً بين معاصريه من الشعراء العُذريين والمغامرين؛ ولكنه هو أبرز الناحية الوجدانية في ديوانه وجمع عدداً كبيراً من تلك الخصائص في قصائد معينة وأكّد فيها الناحية الشخصية، إذ لم يكن بحاجة إلى التكسُّب فيُرضيَ غيرَه بمدح أو عتاب. فالجديد عند عمر، إذَنْ، ليسَ خصائصَه المُفردَة، بل جَمْعُ تلك الخصائصِ بعضَها إلى بعضٍ في سياقٍ بارز.

وفي ذلك العصرِ الذي كان الشعراءُ يقولون فيه كلّ أنواع الشعرِ من مديح وهجاءٍ وغزَلٍ وفَخرٍ- وفيهم أولئك الشعراء العذريون الذين وقَفوا حياتهم على رِضا امرأةٍ واحدةٍ- لم يَقُل عمرُ إلّا فناً واحداً: الغزل الصريح. إنّ هذا قد أبرزَ شعرَ عمر بين أشعار مُعاصريه إبرازاً شديداً حتى لَفت النظر إلى ما فيه من جديد فظهر كأنه جديدٌ كلُّه. ونحن نستطيع أن نقول: إنّ شعرَ عمر كان طِلاءً جديداً على موضوعاتٍ قديمة.

ثم يجبُ ألّا ننسى أن عمر قد رُزق حظاً عظيماً حمل شعرَه على الألسنة، ولقد نظمَ كثيرون من الشعراء على النحوِ الذي نظمَ عمر، ولكنّ عمر شُهِر بذلك كلّه دونَ غيره من الشعراء الذين لا يقلّون مقدرة عنه، من حيثُ الشاعرية والفنُّ. ولا غرْوَ، فالشهرةُ في كلِّ شيءٍ حظوظٌ.

تمثيل عمر لعصره ولبيئته:

وبعدُ، فإلى أيّ حدٍّ نستطيعُ أن نقول: إنّ عمر بنَ أبي ربيعة كان يُمثّلُ عصره؟

أما أنّ عمر كان ابنَ عصره وبيئته في كثير مما قاله في شعره، فأمر لا ريب فيه. ذلك لأن كلّ إنسانٍ ينبتُ في أرضِه ويتنشّقُ الهواء من جوّه. ولكن من الظلم الكبير أن نقول إنّ عُمر بن أبي ربيعة كان يُمثّل عصره كله - كما أننا لا نستطيع أن نقول مثل

ذلك على كل شاعرٍ آخر. . . لا شك كان في أن عمر كان يمثل جانباً من البيئة الحجازية في النصف الثاني من القرنِ الأول للهجرة (٦٧٠ - ٧١٠). وإذا لم يكن في شعره صورةٌ كاملةٌ لعصره فليس معنى ذلك أن شعره كان خالياً من قَسمات تلك الصورة. إننا نَعرفُ البيئةِ الحجازية خاصةً وفي البيئة الإسلامية عامة، كما كانوا يمثلون في ذلك العصرِ نفسِه مظاهرَ لا نرى أثراً لها في ديوان عُمر.

لقد عاصر عُمر ابن أبي ربيعة جماعةٌ لم يكونوا على سَمْتِه في الحياة. من هؤلاء (شذرات الذهب ١ :٨٧ وما بعد): عبداللهِ بنُ جعفرِ بنِ أبي طالبِ وكان من فُضلاءِ الصحابة ثم أَسْلَمُ مَوْلى عُمر بن الخطاب وكان فقيها نبيلاً ثم أبو القاسم محمدُ بنُ عليّ ابن أبي طالبِ (المعروف بابنِ الحنفية) وكان نهايةً في العلم والعِبادة ثم سُوَيد بنُ غفلة وكان فقيهاً إماماً وعابداً قانتاً كبيرَ القَدْرِ ثم عبدُالله بن شدّادٍ وكان فقيهاً كثيرَ الحديث ثم خالد بن يزيد، وكان بلا ريبَ من مُحبّي العلوم الطبيعية، زعمَوا أنه كانت له مُشاركةٌ كبيرةٌ في الطِبّ والكيمياء ثم موسى بنُ نُصيرٍ وطارقُ بن زياد فاتحا الأندلس ثم أَنَس بن مالك وكان من ساداتِ الصحابة ثم رفيعُ بن مهران المُقرىء والمفسّرُ ثم عُروة ابنُ الزُّبير وأبو بكرِ بنِ عبدِ الرحمن بن الحارث- وكانا من فقهاءِ المدينة السبعة- وكان ابنِ الحارث يُلقّبُ براهب قريش. ثم كان من معاصري عُمر ابن أبي ربيعة عليّ بنُ الحُسين ولقبه زينُ العابدين لِفَرْط عبادته، وبالغَ الرواةُ فذكروا أن وِرْدَهُ (أي تطوّعَه في العِبادة) كان ألفَ رَكعةٍ في اليومِ والليلة، ومن مُعاصري عمرِ أيضاً الزُّهري المشهور أحد الأئمة الكبار ثمّ الحجاج بن يوسف والي العراق ثم الإمام الجليل سعيد بن المسيّب أحد أعلام الدنيا وسيّد التابعين ثم الإمام الجليل إبراهيم بن يزيد النخَعي فقيهُ العِراق في زمانه باتفاق الرواةِ ثم عبيدُ الله بن عبدالله بن عُتبةَ مؤدّب عُمَر بنِ عبد العزيز الخليفةِ الأموي المعروف بالصّلاح والعَدْلِ والعبادة والتواضع وحُبّ الحقّ ثم أبو الأسود الدّؤَلِيّ واضعُ علم العربية (النحو) ثم حَنَشُ الصَنعاني والي إفريقية والذي خطّ مُعظمَ المساجدِ في المغرب وفي الأندلس. ثم كان منهم مُسلم بنُ يسارٍ، وكان من عُبّاد البصرة وفقهائها وكان ثِقةً (في روايةِ الحديث) فاضلاً عابداً ورِعاً.

- وقُلن امكثي ما شئتِ لا مَن أمامَنا نَخافُ ولا نخشى من الآخرِ اللَّحَقْ[١].
- ومِنْ عجَبٍ ضَحِكتْ إذ رأتْ قُرَيْبَةُ بالخَيْفِ رَكباً وُقوفا
- فَقُلْنَ: اسكُتي عنّا فغَيرُ مُطاعةٍ لَهو بكِ مِنا فاعلمي ذاكَ أرْفَقُ.

(٦) الصدق في الفن:

أراد عمرُ أن يُعبّر بشعرِه عن نفسِه: عمّا اتفق له من الحوادث أو عمّا كان يرغبُ أن يتفق له. بهذا النظرِ نستطيعُ أن نقول إنّ عمر كان صادقاً في ما نَظم من الشعر. وسواءُ أكان عمرُ قد عَمِل كلَّ ما كان قد ذكَرهُ في شِعره أم إنه قد عَمِل بعضَهُ فقط، فالمهِم لدينا أن يكون قد صَدَق في التعبير عمّا كان يجول في نفسه أو عما اتفق له فِعلاً (راجع - في المختارات- مثلاً: «قال لي صاحبي ليعلمَ ما بي...»).

من أجلِ هذا قالوا إنّ مِنَ ميزّاتِ عمر دِقة المعنى وإصابةَ الهدفِ وصوابَ المصدرِ ونهجَهُ العللَ وإثباتَ الحجّة وترجيحَ الشكّ في موضع اليقين، يَعنون بذلك أنّ عمر يميلُ في نَظمِ الشِعر إلى ما يتفق في الحياة أو يُشاهَد في الاجتماع الإنسانيّ- بين الناس، إذا كَشفَ الناس عما يَوَدّون- فلا يُدْخِل في حساه الأمور الخياليّة التي لا تتحققُ. ثم هو يُعني بالجانب المَعنوي من شِعره أكثر من عنايته بالجانب اللفظي.

(٧) عذوبة شعره:

وأكثر شِعر عمر عذْبٌ في الفَم عذبٌ في الأُذن حُلوٌ في النفس يُعزى ذلك إلى أنّ موضوع الغزلِ قريبٌ من النفوس وإلى أن شعر عمر نفسه سهلٌ مُتخيَّرُ الألفاظِ والتراكيب، مُرْقِصُ الأوزانِ في بعضِ الأحيان، وله طلاوةٌ وعليه ماءٌ:

بينما ينعتْنَني أبصرْنني دون قيد الميل يعدو بي الأغرّْ[٢].

---

(١) امكثي (ابقي معي هادئة)، نحن بعيدان عن كل إنسان، فالذي أمامنا لا ينتظر أن يعود فيرانا. والذي وراءنا يبعد عنا كثيراً، ولا أمل له في أن يصل إلينا في وقت قريب.

(٢) ينعت: يصف.دون (أقل من) قيد (بكسر القاف: مقدار) يعدو: يركض. الأغرّ: (الحصان) الأبيض.

عمر وخصائص عصره:

حينما يقولُ عُمر بن أبي ربيعةَ:

أَلَمْ تَربَعِ على الطَّللِ المُريبِ عَفا بين المُحَصّبِ فالطلوبِ[١]،

بمكَّةَ دارساً دَرَجتْ عليه خِلافَ الحيّ ذيلُ صبَا دَؤوبِ[٢]،

فاقْفرَ غيرَ مُنتضدٍ ونُؤيٍ أجدَّ الشوقَ للقلبِ الطّروبِ[٣]؟

نرى قولَه قريباً من قولِ مُعاصريه وسابقيه من حيث المعاني والأسلوب. إنّ عمرَ في مثالِ هذه القصيدةِ يكادُ يكون جاهليَّ النفس، جاهليّ المعاني، جاهليّ التركيب- سوى شيء من اللين أو الضّعف في التركيب- يراه البصيرُ الحادُّ البصر حينما ينظرُ إلى شعر عمر وإلى الشعر القديم. ومعَ ذلك فهذا النّفس الجاهلي ليس نادراً في ديوانِ عمر.

ولكنّ الغالبَ على شعر عمر غيرُ هذا الأسلوب. إنّ عمرَ حينما يقولُ مثلَ قولِه:

ليتَ هِنْداً أنجزَتْنا ما تَعِدْ وَشفَتْ أنفسَنا مما تَجِدُ[٤].

واستبدّت مرّةً واحدةً؛ إنما العاجِزُ مَنْ لا يستبدّ؛

يفارق أشياءَ كثيرة من خصائص عصره. إنه يكون حينئذٍ أقربَ إلى الشعر المُحْدَث في العصر العبّاسيّ.

---

(١) ربع: مكث (بقي مدة طويلة). الطلل: أثر الخيمة بعد وقع الخيمة (أثر البناء بعد زوال البناء). المريب: المشكوك فيه (الذي لست على ثقة من أنه طلل الخيمة التي كان فيها المحبوب أو طلل خيمة أخرى). عفا: امّحى، زالت معالمه. المحصّب مكان رمي الجمار في منى). الطلوب: اسم مكان.

(٢) الدارس: الممحوّ. درج: سار، مشى، مرّ. خلاف الحيّ (حول أرجاء الحي: مكان السكنى) الصبا: ريح الشرق. الدؤوب.المستمر.

(٣) أقفر: خلا من السكان. منتضد (مكان مرتفع قليلاً يستخدم في الخيمة الكبيرة لوضع عدد من الأشياء عليه) ونؤي (خندق يحفر حول الخيمة حتى لا يدخل إلى الخيمة ماء، إذا أمطرت السماء= مطراً غزيراً): لم يبق من آثار هذه الخيمة إلا ذلك المنتضد وذلك النؤي. أجدّ: جدّد، أعاد ذكرى الشوق (حبك القديم). الطروب: الذي يحرّك عواطفه الفرح أو الحزن.

(٤) أنجز: نفذ. تعد (بلغة أهل الحجاز): تتوعد، تهدّد. مما تجد نفوسنا. وجد: شعر بالخوف (من وقوع هذا التهديد على حين غفلة).

سَقطت الدولة الأموية، في الثالثَ عَشَرَ من ربيع الأول من سَنة ١٣٢ للهجرة (٣٠/ ١٠/ ٧٤٩م). وقامت على أنقاضها الدولة العبّاسية. ولكنّ الحضارة كانت تتبدل شيئًا فشيئًا منذ خرج العرب بالفتح من شبه جزيرتهم. ويبدو أن هذه الحضارة قد بدأ تبدُّلها قبل ذلك أيضاً بعواملَ لا تزال مَعْرفتُها بحاجةٍ إلى درس مُستفيض.

غير أنّ هذا التبدُّل في شعرِ عمر بن أبي ربيعة كان، بهذا النظر، واسعاً جداً فلفتَ نظرنا أكثرَ ممّا لفتَ نظرنا قولُ جرير:

إنّ العيونَ التي في طَرْفها حَوَرٌ قَتلْننا ثم لم يُحْيينَ قتلانا[1]:

يَصْرعْنَ ذا اللُّبْ حتى لا حِراك به وهنّ أضعفُ خلقِ الله إنسانا[2]؛

ذلك لأنّ مثلَ هذا القولِ السهل العَذْب في شعرِ جريرٍ قليلٌ (ومَعَ ذلك فإنّ هذين البيتين يُستشهَدُ بهما على عُذوبةِ شعرِ جرير)، بينما السهلُ العَذْب في شعرِ عمر كثيرٌ جِداً، أو هو الغالبُ على شعرهِ كلّهِ.

(١) الحور: أن يكون بياض العين شديداً، وأن يكون سوادها شديداً أيضاً. في بعض كتب الأدب لأستاذ من معاصرينا جهل بإعراب هذا الفعل (إذ ظن ذلك «الأستاذ» أن جريراً قد أخطأ لأنه ترك اليائين في هذا الفعل مثبتين. من أجل ذلك سنعرب هذا التركيب هنا: لم (حرف جازم). يحيين. يحيى (فعل مضارع مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة، في محل جزم بحرف الجزم«لم»). ونون النسوة (ضمير) في محل رفع فاعل.

(٢) صرع فلان فلانا: طرحه أرضاً (قتله). اللبّ: العقل (الذي جاوز صاحبه طور الحبّ والعشق). الإنسان: بؤبؤ العين (وهوأضعف جزء في الجسم).

المختار من شعر عمر (١)

١- رائية عمر- مغامرة

القصيدة التالية أشهر قصائد عمر وأحسنها له وللغته تمثيلاً، يصف فيها مغامرة قام بها للوصول إلى فتاة منيعة. يذكر أن اسمها «نعم». وهنالك أبيات من البحر نفسه والروي نفسه في وصف الناقة يزعمها بعضهم من القصيدة وليست منها على الأرجح.

(أمِنْ آل نُعْمٍ أنت غادٍ فمُبكِرُ ... غداةَ غدٍ أم رائح فمُهجِّر؟(٢)
(لحاجة نفسٍ لم تقُلْ في جوابها ... فتُبلغَ عُذراً، والمقالة تُعذر(٣).
تَهيمُ إلى نُعْمٍ فلا الشملُ جامعٌ ... ولا الحبلُ موصولٌ ولا القلب مُقصر،
ولا قُربُ نعمٍ، إن دنَتْ، لك نافعٌ ... ولا نأيُها يُسلي ولا أنت تَصبِرُ(٤).
وأخرى أتتْ من دون نعمٍ ومِثلُها، ... نَهى ذا النُهى لو تَرْعوي أو تفكِّر(٥).
إذا زُرتُ نُعماً لم يزَلْ ذو قَرابةٍ ... لها كلما لاقَيْتُها يَتنمّر:

---

(١) الأبيات المحصورة بين أهلة (......) كانت تغنّى.

(٢) غاد (مسافر باكراً) غداة غد (غداً صباحاً) رائح (ذاهب في أواخر النهار) مهجّر (في وقت الحر).

(٣) تعظم (بضم الظاء) السهولة في هذا البيت حتى يستحيل غموضاً. يقول عمر: لك حاجة عند آل نعم تريد أن تقضيها. ولما سئلت عن سبب ذهابك لم تجب على ذلك. ولو أجبت بجواب ما، لعذرك الناس. والمقالة (قول الإنسان) يعذر (بضم فسكون فكسر): يرفع اللوم عن الإنسان.

(٤) نأيها (بعدها) يسلي: ينسي (حبّك إياها).

(٥) النهى: العقل، ارعوى: رجع عما يفعله من خطة. وأخرى (فتاة أخرى) أتت من دون نعم (عرضت لك، وهي أجمل من نعم). ومثلها (مثل هذه الفتاة الأخرى) كان يجب أن ينهاك (يصرفك) عن حب نعم، لو كنت ترعوي (ترجع عن غيّك).

عـزيـزٌ عـليه أن ألمَّ بِـبَـيْتِـهـا ، يُسِرُّ لي الشـحناءُ والبَغضُ مُظهَر.

***

أَلِكْني إليْها بالسـلام فإنّني يُشهَّر إلمامي بها ويُنكَّر[١].
بآيةِ ما قالتْ غداة لَقِيتُها بمدفَع أكنانٍ: أهذا المشهَّر؟[٢].
(قِفي فانظُري أسماءُ هل تعرفينَه؟ أهذا المغيريّ الذي كان يُذكر[٣]؟
أهذا الذي أطريتِ نعتاً فلم أكُنْ، وعيشِك، أنساه إلى يوم أُقبر[٤]
(فقالت: «نعَمْ، لا شكَّ غيَّر لونَه سُرى الليلِ يُحيي نصَّه والتهجر[٥].
لئِنْ كان إياه لقد حالَ بعدَنا عن العهدِ، والإنسان قد يتغير[٦].
(رأتْ رجْلاً أما إذا الشمس عارضتْ فيَضْحى وأما بالعشيّ فيخصَر[٧]:
أخا سَفرٍ جوابَ أرضٍ تقاذفَتْ به فلواتٌ فهو أشعثُ أغبر)[٨]،
قليلاً على ظهرِ المَطِيّة ظِلُّه سِوى ما نَفى عنه الرداءُ المُحبَّر[٩].

***

(١) ألك (بفتح ففتح): حمل، بلغ ألوكة (رسالة). الإلمام: المرور بالمكان مروراً خفيفاً. يشهّر وينكر: يذم.
(٢) المشهّر (هنا): المشهور. مدفع أكنان اسم مكان.
(٣) المغيريّ (بالضم: عمر بن أبي ربيعة) نسبة إلى عشيرته بني المغيرة.
(٤) أطرى: مدح.
(٥) السرى: السير ليلاً. يحيي (يسهر) نصه (السير فيه بجدّ وسرعة). التهجر: السير وقت الحر أسفاره دائمة ليلاً ونهاراً.
(٦) حال: تبدّل، تغيّر.
(٧) عارضت الشمس: ارتفعت قليلاً. يضحي (يتأخر في النوم). يخصر يتبرّد: يستكن من الحر. يقصد أن المحبوبة كانت تعرفه من قبل رجلاً منعماً، أما الآن فقد حال (تغيّر) عما تعهده من جماله وشبابه.
(٨) جوّاب أرض: يقطع الأرض من جانب إلى جانب. الفلاة: الأرض الواسعة (الصحراء).أشعث: متفرّق الشعر. أغبر (عليه غبار من طول السفر).
(٩) لا يظلله على ظهر المطية (الدابة التي يسافر عليها) سوى ثوب رقيق من حرير. يقلّ ظل الشيء (على الأرض) إذا أصبحت الشمس في كبد السماء (يقصد الشاعر أنه كان يسافر إلى بلد حبيبته في نصف النهار، في وقت اشتداد الحر. ولم يكن المسافرون في العادة يفعلون ذلك).

نحن لا نُنكِر أن الشعر القديم، في العصر الأموي وقبل العصر الأمويّ، قد جاء فيه مثلُ هذا القولِ العَذْبِ القريب إلى ذوقنا الحديث، كقول عَنْتَرَةَ:

ولقد ذكَرْتُكِ والرِّماحُ نواهِلٌ   منّي وبيضُ الهِند تقطُرُ من دَمي[1]،
فوَدِدتُّ تقبيلَ السيوفِ لأنها   لَمَعتْ كبارقِ ثَغْرِك المُتَبَسِّمِ.

أو مثل قول المُنَخَّلِ اليشكُري، في الجاهلية:

ولقد دَخلتُ على الفتا   ةِ الخِدْرَ في اليوم المَطيرِ،
الكاعبِ الحسناءِ تر   فُلُ في الدِمَقْسِ وفي الحرير[2].
فدفَعْتُها فتدافعَتْ   مَشيَ القَطاةِ إلى الغدير[3]،
ولثَمْتُها فتنفَّسَتْ   كتنفُّسِ الظَّبيِ الغرير[4]...

إن هذا أبعدُ عن الخصائص العامة في الشعر الجاهليّ وأقربُ إلى ما جاء في العصر العبّاسيّ. غير أنّ قول عنترة ذاك وقول المنخّل اليشكُريّ هذا قليلٌ في شعر الشاعرين- أو يجبُ أن يكون قليلاً في الشعر القديم كلّه. أما عمرُ ابن أبي ربيعة الذي عاش في العصر الأمويّ، فإنّ مُعظمَ شعره من هذا الباب الذي هو بابُ الشعرِ المحدَثِ في العصر العبّاسيّ.

إنّ لذلك تفسيراً واضحاً. إنّ الحضاراتِ لا تتبدّل فجأةً. وإن خصائص العصور ليست مُتحاجزةً بحواجز ثابتة. حينما تبدأُ الحضارة في بُقعة ما من بِقاع الأرض بالتطوّر يَنسبُ إليها خصائصُ جديدةٌ بالتدريج، ثم تظلُّ هي تحتفظُ بعددٍ من الخصائص القديمة مدّةً طويلة من الزمن. إنّ الشعرَ المحدَث لم تبرُز خصائصه فجأة يوم

(١) الناهل والناهلة: الذي يشرب حتى يرتوي. بيض الهند: السيوف.
(٢) الكاعب: الفتاة إذا استدار ثدياها وبرزا. رفل: تختر في ثيابه متمايلاً ومعجباً (بضم فسكون ففتح) بنفسه. الدمقس: الحرير.
(٣) القطاة: طائر سريع الطيران. مشي القطاة إلى الغدير: بسرعة (ويمكن أن يكون المقصود «ببطء» من الدلائل والاطمئنان والثقة بالنفس).
(٤) الغرير: الذي يقل اختباره في الأمور.

فقلتُ،لها: «بل قادني الشوقُ والهوى إليك وما نفسٌ من الناس تشعر»
فقالتْ، وقد لانتْ وأفرَخ رَوْعُها: «كَلاكِ بِحفْظٍ ربُّك المتكبر[١]».
فأنتَ، أبا الخطابِ، غيرَ مُدافعٍ عليَّ أميرٌ ما مكثتَ مؤمَّر».
فبِتُّ قريرَ العين أُعطيتُ حاجتي: أُقبِّلُ فاها في الخلاء فأُكْثِرُ.
فيا لكَ من لَيْلٍ تقاصَرَ طولُه؛ وما كان ليلي قبلَ ذلك يقصُرُ؛
ويا لك من مَلْهىً هناك ومجلسٍ لنا لم يُكدِّرْه علينا مُكدِّر:
يمُجُّ ذَكِيَّ المِسكِ منها مُقبَّلٌ نقيُّ الثنايا ذو غُروبٍ مؤشَّر[٢]،
تراه إذا ما افترَّ عنه كأنه حَصى بَرَدٍ أو أُقحُوانٌ منوَّر.
وترنو بعَيْنَيها إليّ كما رنا إلى ظبيةٍ وسْطَ الخميلةِ جُؤذَر[٣].
فلما تقضّى الليلُ إلا أقَلَّه وكادتْ تَوالي نجمهِ تتغوَّر[٤]،
أشارتْ بأنَّ الحيَّ قد حانَ منهم هُبوبٌ، ولكنْ موعدٌ لك عَزْوَرُ[٥]!

***

فما راعني إلا مُنادٍ: «ترحّلوا»، وقد لاحَ معروفٌ من الصُبْح أشقر.
فلما رأتْ من قد تَنَبَّه منهُمُ وأيقاظهُم، قالت: «أشِر، كيف تأمر»؟
(فقلتْ: «أبادِيهم، فإما أفوتُهم، وإما ينالُ السيفُ ثأراً فيثأر»[٦].
فقالتْ: «أتحقيقاً لِما قال كاشحٌ علينا، وتصديقاً لما كان يُؤثَر[٧]؟
فإن كانَ ما لابدَّ منه فغيرُه من الأمرِ أدنى للخَفاء وأستر:

(١) أفرخ (ذهب، زال) روعه (بالفتح: خوفه) كلاك = كلأك: حفظك.
(٢) مجّ: لفظ، أخرج. ذكي: شديد الرائحة (الطيبة). مقبّل (فم). الثنايا (جمع ثنية): أسنان. ذو غروب مؤشر (رقيقة مخططة خلقة أو صنعة، كناية عن بياضها ونظافتها).
(٣) رنا: نظر. الخميلة: الشجر الكثير الملتف. الجؤذر: ابن الظبية.
(٤).. اقتربت. توالي (أواخر، بقايا) نجمه (نجومه) تتغور (تغيب).
(٥) الهبوب: الانتباه من النوم.عزور: ثنية (طريق في الجبل) بين مكة والمدينة.
(٦) بادى فلان فلاناً: بارزه، قاتله. أفوتهم (أسبقهم، أنجو منهم).
(٧) الكاشح: العدو المبغض. يؤثر: يقال، يروى، يحكى (عنا).

أقّصُّ على أُختيَّ بدءَ حديثِنا؛ وما لِيَ من أن تعلما متأخَّرُ.
لعلَّهما إن تطلُبا لك مخرجاً وإن ترحبا سِرْباً بما كنتُ أحصَر»[١].
فقامت كئيباً ليس في وجهها دم من الحزن، تُذري عبرة تتحدر؛
فقالتْ لأختَيْها: «أعِينا على فتىً أتى زائراً، والأمر للأمر يُقدَرُ»[٢].
فقامتْ إليها حُرَّتانِ عليهما كِساءان، من خزّ، دِمَقسٌ وأخضر.
فأقبلتا فارتاعتا، ثم قالتا: «أقِلّي عليكِ اللومِ فالخطبُ أيسر».
فقالتْ لها الصُغرى: «سأعطيه مِطرفي ودِرعي، وهذا البُرد إنْ كان يحذر[٣]؛
يقومُ فيمشي بَيْننا مُتنكِّراً، فلا سِرُّنا يفشو ولا هو يظهر».
فكان مِجَنّي دونَ من كنتُ أتّقي ثلاثُ شُخوصٍ: كاعبانِ ومُعْصِر[٤].

***

فلما أجَزْنا ساحةَ الحيِّ قُلنَ لي: «الم تتّقِ الأعداءَ، والليلُ مُقمِرُ»؟
وقُلنَ: «أهذا دأبُك الدهرَ سادراً، أما تستحي أو تَرْعوي أو تفكّر؟
إذا جئتَ فامنحْ طرفَ عيْنيك غيرنا لكي يحسبوا أنّ الهوى حيثُ تنظرُ».

***

فآخرُ عهدٍ لي بها حين أعرضَتْ ولاح لها خدٌّ نقيٌّ ومَحْجرُ[٥].
هنيئاً لأهلِ العامرية نشْرُها اللذيذُ ورَيّاها الذي أتذكّرُ[٦].

---

(١) رحب: اتسع. السرب (بالكسر): الصدر. حصر (بفتح فكسر) فلان يحصر (بفتح الصاد): ضاق صدره، عجز عن الاحتمال.
(٢) الأمر للأمر يقدر (لعلكما تقعان في المستقبل فيما وقعت فيه أنا الآن فأساعدكما!).
(٣) المطرف (بكسر الميم أوضمها وبفتح الراء): ثوب كبير مخطط وذو أعلام (أشكال، صور). الدرع: ثوب خاص بالنساء. البرد: ثوب واسع يلتحف به يحذر: يخاف (أن يعرفه أحد).
(٤) المجن: الترس. كان مجني (كان يسترني، يستر حقيقتي) يخفي عن الناظرن أني رجل. أتقي: أخاف (أن يعرف أحد حقيقة أمري). الكاعب: التي كعب ثديها. المعصر الشاة التي لحقت بجيل النساء.
(٥) أعرضت: التفتت تودعني. المحجر: التجويف الذي تستقر فيه العين (العين).
(٦) العامرية (كناية عن فتاة من بني عامر، كناية عن المرأة الجميلة؟). النشر والريّا: الرائحة الطيبة.

٢-عمر والثريا

في كتاب الأغاني أن عمر قدم المدينة فنزل على ابن أبي عتيق، فلما استلقى قال: أوه، من رسولي إلى الثريا بأني ضقت ذرعاً بهجرها، والكتاب. فقال ابن أبي عتيق: كل مملوك لي حر إن بلّغها ذلك غيري، ثم إنه أصلح بين عمر والثريا في حديث طويل.

(قالَ لي صاحبي ليعلمَ ما بي: «أتُحِبُّ القَتولَ أختَ الرّبابِ؟»
قُلتُ: «وَجْدي بها كوَجدك بالعَذْ بِ إذا ما مُنِعتَ طعمَ الشراب!»
من رَسولي إلى الثُريّا بأني ضِقتُ ذرعاً بهجرها، والكتاب[١]؟
أزهَقتْ أمُّ نوفَلٍ، إذ دعَتْها، مهجتي؛ ما لقاتلي من متاب[٢].
حينَ قالت لها: «أجيبي». فقالتْ: «مَنْ دعاني؟» قالتْ: «أبو الخطاب[٣]».
فأجابتْ عندَ الدُعاء كما لبّى رجالٌ يَرْجون حُسنَ الثواب[٤].
أبْرزوها مِثلَ المهاةِ تَهادى بينَ خمسٍ كواعبٍ أتراب[٥].
(وهْيَ مكنونةٌ تحيّرَ منها في أديمِ الخدّيْنِ ماءُ الشباب[٦].
دُميةٌ عندَ راهبٍ ذي اجتهادِ صوّروها في جانبِ المِحْراب[٧].
(ثم قالوا: «تُحِبُّها؟» قلتُ: «بَهراً، عددَ النجمِ والحصى والتراب!»[٨]

---

(١) وجدي: حبي. العذب (الماء) الحلو.
(٢) ضقت ذرعاً (صدراً أو خلقاً): قلّ صبري. والكتاب: الواو للقسم. الكتاب (القرآن).
(٣) أبو الخطاب: كنية عمر بن أبي ربيعة.
(٤) لبى: رفع صوته بالتلبية (في الحج) لبيك، اللهم، لبيك.
(٥) المهاة: الظبية. تتهادى: تتمايل في مشيها. الكاعب: التي كعب ثديها (في أول شبابها).أتراب (جمع ترب بالكسر): متساويات في العمر.
(٦) مكنونة: مستورة، يحافظ عليها (في بيتها). تحيّر ماء الشباب (لاح، تلألأ، تحرك، تردد). الأديم: الجلد.
(٧) يشبه عمر محبوبته بالتمثال الذي يكون عند مصلى الراهب التقي (تمثال أو صورة لمريم بنت عمران كما يتخيلها النصارى).
(٨) بهراً: عجباً.

وأعْجَبَها من عَيْشِها ظِلُّ غُرفةٍ وريَّانُ مُلتفُّ الحدائقِ أخضر،
ووالٍ كفاها كلَّ شيءٍ يَهُمَّها، فليستْ لشيءٍ آخرَ الليلِ تسهر(١).

***

وليلة ذي دَوْرانَ جَشَّمْتِني السُرى؛ وقد يُجَشِّمُ الهولَ المحِبُّ المغرَّر(٢).
فبتُّ رقيباً للرفاقِ على شَفاً أحاذِرُ منهم من يطوفُ وأنظرُ(٣)
إليهم، متى يَستمكِنُ النومُ مِنهُمُ ولي مجلسٌ لولا اللُّبانةُ أوْعر(٤).
وباتَتْ قَلوصي بالعَراء، ورِحْلُها -لطارق ليلٍ أو لمن جاء- مُعْوِر(٥).
وبتّ أُناجي النفسَ أينَ خِباؤها، وكيفَ لما آتي من الأمر مصدر(٦)؟
فلما فقدتُّ الصوتَ منهم وأُطفِئَتْ مصابيحُ شُبَّت بالعِشاءِ وأنوُرُ(٧)؛
وغاب قُميرٌ كنتُ أهوى غُيوبَه، ورَوَّحَ رُعيانٌ ونوَّم سُمّر(٨)،
وخُفِّضَ عني الصوتُ أقبلتُ مِشيةَ الـ حُبابِ وشخصي خَشيةَ الحيِّ أزوَرُ(٩).
فحَيّيْتُ إذ فاجأتُها فتولّهتْ، وكادتْ بمكنونِ التحيّةِ تجهَرُ.
وقالتْ، وعضّتْ بالبنان: «فضَحْتَني! وأنتَ امرُؤٌ ميسورُ أمرك أعسرُ(١٠).
أرَبتُكَ إذ هُنَّا عليك، ألمْ تخفْ رقيباً؟ وحولي من عَدُوِّكَ حُضَّر؟
فواللهِ، ما أدْري أتعجيلُ حاجةٍ سرتْ بك أم قد نام من كنتَ تحذر!»؟

---

(١) الوالي= الوليّ (أب، أخ، زوج). لا تسهر في عمل لكسب المعاش (غزل الصوف مثلاً).
(٢) ذو دوران: المكان الذي جرت فيه المغامرة. جشمتني السرى: كلّفتني السفر ليلاً.
(٣) بتّ: (قضيت الليل). شفا: منحدر.
(٤) اللبانة: الحاجة. أوعر: خطر (معرّض للهجوم).
(٥) القلوص: الناقة: بالعراء: في الخلاء. لطارق ليل: لص (؟). معور: معرض من فيها للعدو.
(٦) أناجي النفس: أحدث نفسي سراً. مصدر: رجوع، مخرج، منجى، خلاص.
(٧) شبت: أشعلت. أنور (جمع قلة) لنار.
(٨) روّح: رجع (مساء للمبيت). السمر= السمّار: الذين يسهرون ويتحدثون ليلاً. القمير: القمر في أول الشهر (مغامرته كانت في مطلع الشهر القمري).
(٩) الحباب: الحية. أزور: مائل.كناية عن أنه كان يسير بحذر.
(١٠)عضت بالبنان (كناية عن الخوف أو الندم). أعسر: شديد العسر (بالضم: الصعوبة).

هنالك فانزِلْ فاسْترِحْ، فإذا بدَتْ ثُـرَيّاكَ في أتـرابِهـا الحُـر كـالـدُّمـى[١]

- يُردْنَ اختيازِ السِرّ منك- فلاتبُحْ بما لم تَكنْ عنه لدينا مُجَمْجِما[٢]»!

٤- هند

(لَيْتَ هِـنـداً أنجزَتْـنـا مـا تَـعِـدْ وشَـفَـتْ أنـفـسُـنـا مـمـا تَجِـدْ[٣].

واسـتـبـدّت مـرّةً واحـدةً؛ إنمـا الـعـاجـزُ مـن لا يـسْـتـبـدّ!

***

زعـمـوهـا سـألـت جـاراتِهـا - وتـعـرَّ ت ذلـتَ يـوم تَـبْـترِدْ[٤]-:

«أكـمـا يَـنْـعَـتُني تُـبْـصِرْنَـني عَـمْـرَكُـن الـلـه- أم لا يـقـتـصِدْ[٥]»؟

فـتـضـاحَـكْـنَ، وقـد قُـلـنَ لهـا؛ «حَـسَـنٌ في كـلّ عَـيـنٍ مَـنْ تَـوَدّ

حَـسَـدٌ حمِّـلـنَـه مـن أجـلـهـا؛ وقـديمـاً كـان في الـنـاسِ الحـسـدْ)

غـادةٌ يـفـترّ عـن أشْـنَـبِـهـا - حـين تجـلـوهُ- أقـاحٍ أو بَـرَد[٦].

ولهـا عـيْنانِ في طَـرْفَـيْـهـمـا حـوَرٌ مـنـهـا، وفي الجِـيـد غَـيـد[٧].

طَـفـلـةٌ بـاردةُ الـقـيـظِ إذا مَـعـمـعـانُ الـصيفِ أضـحـى يَـتّـقـد.

---

(١) بدت: ظهرت (مرت عرضاً). الحوراء (من كن بياض عينيها شديداً وسوادهما شديداً). أتراب: متقاربات في السن. الدمية (بالضم): التمثال (المرأة الجميلة).

(٢) جمجم الحديث: تكلم فيه بصوت خافت. هن يردن أن يظل سبب لقائك هذا سراً (كأنه غير متفق عليه من قبل)، فلا تبح لهن بشيْ.

(٣) تعد من وعد «في اللهجة الحجازية»: هدد. وجد «جدة (بكسر الجيم) وموجدة» غضب أو «وجدا»حزن.=والمعنى أن هنداً تتوعدني دائماً فليتها تنجز هذا الوعيد حتى تهدأ نفسي ويذهب ما بها من الغضب أو الحزن. غير أن هنداً تتوعد ولا تنجز، فليتها تنجز ذلك ولو مرة واحدة.

(٤) تغتسل بالماء البارد.

(٥) لم يقتصد: أفرط وبالغ.

(٦) الشنب: بياض الأسنان وحسنها، والمعنى تفتح فمها عن أسنان كالأقحوان (زهر برّي له بتلات بيض تشبه بها الأسنان) والبرد (حبات الماء المتجمدة).

(٧) الحور: شدة البياض في بياض العين وشدة السواد في سوادها. الجيد: العنق: اللين والنعومة.

سُخنةُ المَشتى لِحافٌ للفتى تحتَ ليلٍ حين يَغشاه الصَرَد[١].

***

ولقد أذكُرُ إذ قُلتُ لها - ودُموعي فوقَ خدّي تَطّرد-:
قُلتُ: «مَن أنتِ؟» فقالت: «أنا مَن شفَّه الوَجْدُ وأبلاه الكَمَد[٢].
نحنُ أهلُ الخَيفِ من أهل مِنَى، ما لمقتولٍ قتلناه قَوَد[٣]».
قلتُ: «أهلاً، أنتمُ بُغيتُنا؛ فتَسَمَّيْنَ»، فقالت: «أنا هِنْد».
إنما ضُلِّلَ قلبي فاحْتوى صَعْدةً في سابِريٍّ تَطّرِد[٤].
إنما أهْلُكِ جيرانٌ لنا: إنما نحنُ وهُم شيءٌ أحد.

***

حدّثوني أنها لي نَفَثَت عُقَداً. يا حَبّذا تلك العُقَد[٥].
كُلّما قُلتُ: «متى مِيعادُنا؟» ضَحِكَت هندٌ وقالت: «بعدَ غد»!

---

(١) طفلة: لينة. الصرد: البرد (بفتح فسكون). من الصفات التي استحبها العرب في المرأة أن يكون جسمها بارداً في الصيف وحاراً في الشتاء.
(٢) شفه (أنحله نحيلاً) الوجد (الحب) وأبلاه (نهك جسمه، أتلفه) الكمد (شدة الحزن).
(٣) الخيف ومنى (مكانان في الحجاز قرب مكة) كناية عن المكانة العالية والقوة. القود: قتل القاتل (الذي يموت في حبنا لا يؤخذ بثأره).
(٤) احتوى: ضم (أحب، أصبح المحبوب في قلبي). صعدة: رمح (كناية عن امرأة طويلة مستقيمة القامة). السابري: نسيج من حرير منسوب إلى بلدة سابور الفارسية (أو إلى كسرى سابور)، تطّرد: تهتز، تتمايل (جمالاً ودلالاً).
(٥) صنعت له سحراً. كانت السواحر، إذا أردن سحر إنسان، عقدن عقداً في خيط ثم ذكرن الشر الذي أردن إنزاله فيه ونفخن على كل عقدة.

٥ - خدعة مزدوجة

(ألم تسألِ الأطلالَ والمُتربّعا ببطنِ حُليّاتٍ دوارسَ بلقعا[١]
إلى الشرح من وادي المغمّسِ بُدّلت مَعالِمُه وَبْلا وَنكباءَ زَعْزَعا[٢]؟ -
فيَبْخَلنَ أو يخبرنَ بالعلمِ بعدَما نَكأنَ فؤاداً كان قِدْماً مُفجَّعا[٣].
لِهِندٍ وأترابٍ لهندٍ، إذِ الهوى جميعٌ وإذ لم نخشَ أن تصدّعا؛
وإذ نحنُ مثلَ الماءِ كان مِزاجُه كما صفّق الساقي الرحيق المشعشعا[٤]؛
وإذ لا نُطيعُ العاذلين ولا نرى لِواشٍ لدينا يطلبُ الصُّرمَ مَطمَعا[٥].
تُنوعِتْنَ حتى عاوَدَ القلبَ سُقمُه، وحتى تذكَّرتُ الحديثَ المودَّعا[٦].
فقلتُ لمُطريهنَ: «ويْحَكَ إنما ضَرَرتَ، فهل تستطيعُ نفعاً فتنفعا[٧]؛
واشرَيْتَ فاستشرى وإن كان قد صَحا فؤادٌ بأمثالِ المَها كان مُوزعا[٨]،
وهيّجتَ قلباً كان قد ودّعَ الصِبا وأشياعَه؛ فاشْفَع عسى أن تُشَفَّعا.
لئن كان ما حَدَّثتَ حقاً فما أرى كمثلِ الألى أطريتَ في الناس أربعا».
فقالَ: «تعالى انظُر» فقلتُ «وكيفي لي؟ أخافُ مقاماً أن يَشيع فيَشنعا».
فقالَ: اكتفِل ثم التَثِم وائتِ باغياً فسلِّم، ولا تُكثِر بأن تتورّعا[٩].

---

(١) المتربع: المكان الذي يقضي الناس فيه الربيع. دارس: ممحو. بلقع: خلاء لا عمران فيه.
(٢) إننا نجد بدل معالمه (أماكنة المعمورة المسكونة) وبْلا (أمطار كثيرة) ونكباء (ريحاً تهب من كل جانب) زعزعا (شديدة تزعزع الأشياء).
(٣) نكأ فلان الجرح: فتحه وأساله من جديد. كان قدماً (منذ زمن قديم) مفجعاً (مصاباً بفراق أحبابه).
(٤) صفق الرجل الشراب (نقله من إناء لآخر مراراً حتى يصفو). المشعشع: الممزوج بالماء.
(٥) العاذل: اللائم (بلا حق). الصرم: القطع (الهجر).
(٦) تنازعت الناس الشيء: وصفه بعضهم لبعض.
(٧) أطرى: مدح.
(٨) أشرى الرجل رجلاً بشيء: أغراه به. الاستشراء: اشتداد المرض. المهاة: بقرة الوحش (نوع من الغزلان). موزع: مغرم.
(٩) اكتفل: أتى مع رديف (راكب ثان) على بعير. بالغ (تائه عن الطريق). لا تكثر بأن تتوزع= لاتكثر التورع (لاتكثر القول بأن وصولك إليهن كان اتفاقاً فيفطنّ إلى أنك قد اطلعت على الخدعة).

فَإنِي سأخفي العينَ عنكَ فلا تُرى مَخافَةَ أن يفشو الحديثُ فيُسْمَعا».
فأقبلْتُ أهْوِي مثلما قالَ صاحبي لِمَوْعِده، أُزجي قَعوداً مُوقَعا[١].
(فلما توافقنا وسلّمتُ أشرقَتْ وجوهٌ زَهاها الحُسنُ أن تتقنّعا[٢].
تباهَنَ بالعِرفانِ لمّا رأينَني، وقُلنَ: «امرؤٌ باغ أكلّ وأوضعا»[٣]،
وَقرَّبنَ أسبابَ الهوى لِمُتيَّمٍ يَقيسُ ذِراعاً كلّما قِسْنَ إصبَعا».

***

فلمّا تنازعنا الأحاديثَ قُلنَ لي: «أخِفتَ علينا أن نُغَرَّ ونُخدَعا[٤]».
فبالأمسِ أرْسلنا بذلك خالداً إليك، وبيّنّا له الشأنَ أجْمعا.
فما جِئتنا إلا على وَفقِ مَوْعِدٍ على مَلأٍ مِنّا، خرجْنا له مَعا[٥]».
رأينا خَلاءً من عيونٍ ومَجلِسا دَميثَ الرُّبى سهلَ المحلّة مُمرِعا[٦]
وقلنا: «كريمٌ نالَ وصلَ كرائمٍ، فحُقّ له في اليومِ أن يتمتّعا».

٦- أمنية مستجابة

هيَّجَ القلبَ مَغانٍ وصِيَرْ دارساتٌ قد علاهُنّ الشجرْ[٧]؛
ورياحُ الصيفِ قد أزْرت بها تَنسِجُ التُرب فُنوناً والمطر[٨].

---

(١) أهوى: أسرع. أزجي: أسوق. قعود (بعير كبير السن). موقع: مصاب بقروح.
(٢) زهاها الحسن (جعلها ناضرة جميلة) أن تتقنعا (لا يجوز، لما لها من الجمال، أن تضع قناعاً على وجهها ربما: جمالها يظهر برغم القناع الذي عليها).
(٣) تباله: تجاهل. باغ: تائه عن الطريق. أكل: تعب. أوضع: أسرع.
(٤) تنازعنا الحديث: تبادلنا الحديث (لما دار الحديث بيننا مدة).
(٥) على ملأ منا (بمعرفة منا).
(٦) دميث الربى (التلال) ليّن الأرض. ممرع: خصيب، كثير النبات.
(٧) المغنى: المكان المسكون العامر. الصيرة: حظيرة الغنم. دارس: ممحو.
(٨) أزرى بها: عابها، جعلها زرية (قليلة القيمة، محتقرة). الرياح تنسج الترب فنوناً: تهب الريح على الرمال فتجعل فيها خطوطاً ومرتفعات مختلفة. المطر معطوفة على رياح. وكذلك تتلاعب الرياح بالأمطار الساقطة...

حينَ شَبَّ القتولَ والجيدَ منها حُسْنُ لونٍ يَرِفُّ كالزِرياب[١].
(اذْكَرَتْني من بهجةِ الشمسِ لما طَلعتْ من دُجنَّة وسَحاب[٢]،
فارْجَحنَّتْ في حُسْنِ خَلقٍ عميم تَتهادى في مشيها كالحُباب[٣].
قلّدوها من القرنفل والدرِّ سِخاباً واهاً له من سخاب[٤]،
(غصَبَتْني مجاحَةُ المِسكِ نفسي، فسَلوها ماذا أحَلَّ اغتصابي).

٢ - عمر والثريا أيضاً

(تشكّى الكُميت الجرْيَ لما جهدتُه وبيَّنَ لو يَسْتطيعُ أنْ يتكلّما[٥].
فقلتُ له: «إن ألْقَ للعين قرّةً، فهانَ علينا أنْ تكِلّ وتسأما[٦]».
عَدِمْتُ، إذَنْ وَفْري وفارقتُ مُهجتي لئن لم أقِلْ قَرْناً إذا اللهُ سلّما[٧]!
لذلك أُدني دونَ خَيْلي رِباطَه وأُوصي به ألّا يُهانَ، ويُكرَما!
فما راعَهُمْ إلّا الأغرُّ كأنه عُقابٌ هوتْ منقضةً قد رأتْ دَما.
فقلتُ لهم: «كيفَ الثُرَيّا؟ هُبِلتُمُ!» فقالوا: «ستَدْري مانَكِرْنا وتعلما[٨]».

---

(١) القتول: اسم المحبوب أو كناية عنها. شب القتول حسن لون (أوقد نار الشباب فيها). الجيد (العنق). حسن اللون شب الجيد (جعلها جميلة). الزرياب: ماء الذهب.

(٢) الدجنة: الظلام.

(٣) أرجحنّ: من «رجحن» (أصله رجح): مال واهتز وثقل.

(٤) قلدوها: جعلوا لها قلادة (عقداً). السخاب: قلادة من قرنفل وغيره (لا حجارة كريمة فيها ولا معدن من ذهب أو فضة).

(٥) الكميت: (الحصان) لونه بين الأحمر والأسود. جهدته (بفتح الهاء أو بكسرها): أتعبه (بكثرة الأسفار وبالإسراع في الجري).

(٦) إن ألق للعين قرّة (هدوءا)، أن أنل غايتي، يهون عليّ أنا أن تكل (تتعب) أنت وتسأم (تمل بفتح ففتح) من كثرة السفر.

(٧) عدمت وفري خسرت ثروتي) وفارقت مهجتي (مت): يدعو على نفسه بذلك. قال يقيل: نام بعد الظهر (ارتاح).

(٨) هبل: فقد عقله أو فقدته أمه (مات). ما نكرنا (ما أخفينا عنك خبره)، تعلم (لا وجه لنصبها).

ظِلْتُ فيه ذاتَ يومٍ واقفاً أسألُ المنزِلَ هل فيه خبر
للّتي قالت لأترابٍ لها قُطُفٍ فيهنّ أنْسٌ وخفَر[١]؛
إذْ تَمَشَّيْنَ بجوٍّ مُؤنِقٍ نَيِّرِ النبتِ تغشّاه الزَهَر[٢]،
بدِماثٍ سهلةٍ زيّنها يومُ غيمٍ لم يُخالِطه قَتَر[٣]:
«قد خَلونا فتَمَنَّينَ بِنا إذ خلونا اليوم نبدي ما نُسِر».
فعَرَفنَ الشوقَ في مُقلتها، وحَبابُ الشوقِ يُبديهِ النظر.
قُلنَ يَسترضِينَها: «مُنيَتُنا لو أتانا اليومَ في سِرٍّ عمر!»

***

(بينما يَنْعَتْنَني أبصَرْنَني دونَ قيدِ الميلِ يَعدو بي الأغَرّ[٤].
قالتِ الكُبرى: «أتعرِفْنَ الفتى؟» قالتِ الوُسطى: «نعَم، هذا عمر».
قالتِ الصُغرى، وقد تيَّمتُها: «قد عَرَفناه، وهل يَخفى القمر![٥]»
ذا حبيبٌ لم يُعَرِّجْ دونَنا، ساقَه الحينُ إلينا والقدر[٦].
فأتانا حينَ ألقى بَرْكَه جملُ الليلِ عليه واسبطر[٧].
ورُضابُ المِسك من أثوابِه مَرمرَ الماءُ عليه فنَضَر[٨].
قد أتانا ما تمنّينا، وقد غُيِّبَ الإبرام عنا والقدر»[٩].

---

(١) قطف جمع قطوف: بطيئة السير قصيرة الخطوات (كناية عن النعيم والدلال). خفر: حياء.
(٢) الجو: المنخفض من الأرض. مؤنق: عجب العين حسنه. تغشاه: غطاء (كثر فيه).
(٣) دماث جمع دميث (أرض) لينة.قتر: شبه دخان (كان في ذلك اليوم غيم رقيق يمنع حر الشمس ولكن لم يكن فيه ضباب يؤذي التنفس).
(٤) دون (على مسافة أقل) قد (مقدار) يعدو: يركض. الأغر: (الحصان) الأبيض.
(٥) تيّمه الحب: أمرضه.
(٦) لم يعرج دوننا: لم يمل إلى أحد غرنا (هو قاصد زيارتنا). الحين (بكسر الحاء المهملة): الوقت (في هذه الساعة). القدر: (من غير ميعاد).
(٧) اسبطر: طال امتدّ لما نزل الليل.
(٨) شيء من الندى مرّ عليه (بلطف) فنضر (اشتدت رائحته).
(٩) الإبرام: الملل. القدر: الضيق.

٧- التجلّد المغلوب

خبّروها بأنني قد تزوّجتُ، فظلّت تُكاتِمُ الغيظَ سِرّا.
ثم قالت لأختِها ولأخرى: «ليتَه كان قد تزوّج عشرا».
وأشارت إلى نِساء لَدَيها، لا ترى دونُهنّ للسِرّ سَترا:
ما لِقَلبي كأنه ليس مِني وعِظامي إخالُ فيهن فَترا[١].
من حديثٍ- نمي إليّ- فظيعٍ، خِلتُ في القلبِ من تلظّيه جمرا[٢].

٨- صراحة واستهتار

أُحِبُّ لِحُبّ عَبلَةَ كلّ صِهرٍ - عَلِمتُ به لعبلةَ- أو صديقِ[٣].
ولولا أن تُعنِّفَني قريشٌ وقولُ الناصحِ الأدنى الشفيقِ،
لقُلتُ، إذا التَقَيْنا: «قبْليني!» ولو كُنا على ظهرِ الطريقِ.
فما قلبُ ابنِ عبدِاللهِ فيها بصاحٍ في الحياةِ ولا مُفيقِ[٤].

****

٩- عفة مزعومة

(كِدتُّ يومَ الرحيل أقضي حياتي؛ ليْتني مِتُّ قبلَ يومِ الرحيلِ!
لا أطيقُ الكلامَ من شِدّة الوَجْـ ـد، ودَمعي يَسيلُ كلّ مَسيلِ.
ذَرَفتْ عينُها ففاضت دُموعي؛ وكِلانا يُلفى بلُبٍّ أصيل[٥].

(١) إخال (بكسر الهمزة يدل فتحها في المضارع): أظن، أشعر. اشعر= الفتر: الخدر (بفتح ففتح): البطء في الحس وضعف الحس.
(٢) نما إليّ ينمو ونمى إلي ينمي: وصل إلي، نقله أحد إلي. تلظّت النار: اشتدّ لهيبها.
(٣) الصهر: القريب من الأهل.
(٤) ابن عبدالله هو عمر بن عبدالله بن أبي ربيعة.
(٥) لبّ: عقل. أصيل: الجيد، الصحيح.

لو خَلَت خُلّتي أصِبتُ نَوالاً أو حديثاً يَشفي مَع التنويل[١].
ولقد قالتِ الحبيبةُ: (لولا كَثرةُ الناسِ جُدتُ بالتقبيل).
ليسَ طعمُ الكافورِ والمسكِ شِيبا ثُمّ عُلّا بالراحِ والزنجبيل[٢]،
حين تنتابُها، بأطيبَ مِن فيها طُروقًا، وإن شئتَ، أو بالمقيل[٣]
ذاك ظنّي ولم أذُق طعم فيها، لا، وما في الكِتابِ من تنزيل[٤]!
وبفرعٍ حدّثتهُ كالمثاني عُلَّ بالمِسكِ فهو مثلُ السَّديل[٥]
رَبعةٌ أو فُوَيقَ ذاك قليلاً ونَؤومُ الضُحى وحَقٌّ كَسول[٦].
لا يزالُ الخَلخَالُ فوقَ الحشايا مِثلَ أثناءِ حَيّةٍ مقتول[٧].
زان ما تحت كَعْبِها قَدَماها، حينَ تمشي، والكعبُ غيرُ نبيل[٨].

****

١٠- اعتراف وتصريح

مرَّ بي سِرْبُ ظِباءٍ رائحاتٍ من قُباءْ[٩]. زُمَراً نحوَ المُصَلّى مُسرعاتٍ في خَلاء[١٠]

---

(١) خلت (كانت وحدها) الخالة: الصديقة. نوالاً: عطاء (وصالاً، اجتماعاً بالحبيبة).
(٢) شاب: مزج. علّ الساقي الشارب: سقاه قليلاً قليلاً. الراح: الخمر. الزنجبيل: نبات حِرّيف الطعم.
(٣) انتاب: أصاب (انتابها: اجتمع بها). طروقاً: في الليل. المقيل: بعد الظهر.
(٤) وما (الواو للقسم) في الكتاب (القرآن) من تنزيل (وحي، آيات وسور).
(٥) فرع: شعر. حدثته (حدثوني عنه). كالمثاني (= مثان: ضفيرتان؟). السديل: ستار يسدل على الهودج (شعرها كثيف طويل وعريض) يشبه ستاراً على ظهرها
(٦) ربعة: مربوعة (معتدلة القامة). تطيل النوم في الصباح وتكسل عن قضاء حاجاتها بنفسها (كناية عن الغنى والنعيم والدلال).
(٧) الحشّية: الفراش. الخلخال: شبه سوار يلبس في الرجل فوق القدم. مثل أثناء (ثنايا، تعرّج)، خلخالها لا يتحرك لأن رجلها سمينة يضيق الخلخال عليها (؟).
(٨) نبيل: مرتفع، بارز (كعبها غير بارز لأن اللحم يغطيه).
(٩) قباء: بلدة قريبة من المدينة.
(١٠) الزمرة (بالضم): الجماعة. المصلّى (المسجد، مسجد مكة؟)

فتعرّضْتُ وألقيْتُ جربيبَ الحياءِ[١] وقديماً كان عهدي وفُتوني بالنساء[٢]!

***

١١- موسم الحج

أيُها الرائحُ المُجِدُّ ابتكارا قد قَضَى في تِهامةَ الأوطارا[٣]،
من يكُن قلبُه سليماً صحيحاً ففؤادي بالخَيفِ أمسى مُعارا[٤].
ليْتَ ذا الحَج كان حَتماً علينا: كلّ شهْرَيْنِ حِجةً واعتمارا[٥]!

*

١٢- مغامرة جريئة

(وناهدةِ الثدْيَينِ قُلتُ لها: «اتّكي على الرملِ»، مِن جبّانةٍ، لم تُوَسّدِ[٦].
فقالت: «على اسمِ الله أمرُك طاعةٌ وإن كنتُ قد كُلّفتُ ما لم أُعَوّد»).
فما زِلتُ في ليلٍ طويل مُلَثَّماً لذيذَ رُضاب المِسك كالمتشهد[٧].
(فلما دنا الإصباحُ قالت: «فضَحْتَني فقُم غير مطرود، وإن شئتَ فازدَد»).
فما ازدَدتُّ منها غيرَ مَصّ لِثاتِها وتقبيل فيها والحديثِ والمردّدِ.

---

(١) ألقيت: خلعت.
(٢) عهدي (معرفتي وصحبتي). فتوني: شدة حبي.
(٣) ابتكاراً: باكراً. تهامة (ساحل الحجاز= مكة؟). الوطر: الحاجة، الغاية (أنهى الحج إلى مكة؟).
(٤) الخيف (قرب مكة). فؤادي أمسى بالخيف معاراً (أحب امرأة رآها في موسم الحجّ).
(٥) حتماً: فرضاً لازماً. الحجة (بالكسر): زيارة مكة للقيام بالمناسك في الموسم (شهر ذي الحجة). الاعتمار= العمرة (بالضم): القيام بمناسك الحج في غير الموسم. هو يتمنى أن يكون الحج في كل شهرين مرّتين (مرة للحج المفروض ومرة للعمرة التي هي تطوع).
(٦) الجبّان والجبّانة (بتشديد الباء فيهما): الأرض المستوية والمرتفعة قليلاً (في خارج البلد). لم توسّد (لم يكن نومها على وسادة).
(٧) ملثماً (بالبناء للمجهول): مسموحاً لي باللثم (التقبيل). «لذيذ» مفعول به ثان من: «ملثماً».

تزوّدتُ منها واتّشجت بمِرْطِها وقُلتُ لعَينيّ «اسفَحا الدمع من غد»[١].
فقامتْ تُعفّي بالرداءِ مَكانها وتطلُبُ شذراً من جُمانٍ مُبدّدِ[٢].

١٣ - وداع هادىء

أيها الباكرُ المريدُ فراقي بعدَما هِجْتَ بالحديثِ اشتياقي،
ليتَ شِعري، غداةَ بانوا وفيهم صورةُ الشمسِ، أينَ يُرجى التلاقي؟
جَزَعٌ يَعْتريك، يا قلبُ، منها أن يَحُثّوا جِمالَهم لانطلاق.
قد شفَيْنا النفوسَ، إن كان يشفي من هواها عِناقُها واعتناقي؛
حينَ كَفّتْ دموعَها ثم قالتْ: «أزِفَ البَينُ وانطلاقُ الرِفاق[٣]»
إنّ قلبي لَفيكُمُ اليومَ رهنٌ لِشقائي، وحُبّ أهلِ العراق!

١٤ - رقعن الكوى بالمحاجر

رأينَ الغواني الشيبَ لاحَ بعارضي فأعْرَضْن عني بالخُدود النواضر[٤]،
وكُنّ إذا أبْصَرْنني أو سَمِعْنني سَعَيْنَ فرَقّعْن الكُوى بالمحاجر[٥].

المتشهد (هنا): الذي يأكل الشهد: العسل.

(١) اتشح الرجل بالثوب (جعله على كتفيه كالوشاح يغطي به الجانب الأعلى من جسمه). المرط: ثوب سابغ (كبير واسع) تتلفع به المرأة (تلف به جسمها). فعل ذلك كي يستر نفسه عن اعين الناس فلا يعرف أحد بمجيئه إلى ذلك المكان مع التي كانت معه. وقلت لعينيّ: اسفحا الدمع من غد: ابدأا بالبكاء من نهار الغد (لأنه لن يستطيع أن يلقى هذه الفتاة مرة ثانية).

(٢) الجمانة: اللؤلؤة الكبيرة. المبدّد: المتفرق، المبعثر. الشذر (هنا): أشياء متفرقة، من قولنا في المثل: «تفرّقوا شذر مذر». كان عقدها قد انقطع وتفرقت حباته في أثناء الليل ولم تشعر هي بذلك.

(٣) أزف: قرب.البين: الفراق.

(٤) العارض: جانب الوجه.

(٥) الكوّة (بالضم وتشديد الواو): النافذة الصغيرة. المحجر (بفتح الميم وكسر الجيم): التجويف الذي تكون فيه العين (العين). وكن إذا أبصرنني (في أيام شبابي). رقعن الكوى بالمحاجر: جعلن ينظرن إلي من خلال الشقوق (في الخيمة، الخ).

فإنْ جَمَحت عني نواظرُ أعينٍ - رَمَيْنَ بأحْداقِ المها والجآذر[١] -
فإنّي من قومٍ كريمٍ نجارُهم لأقدامهم صيغَتْ رؤوسُ المنابر[٢]!

١٥- جواب رسالة

كَتبَتْ- تَعْتِبُ- الرَّباب وقالت: قد أتانا ما قُلتُ في الأشعارِ،
سادراً عامداً تُشهِّرُ باسْمي كي يبوحَ الوُشاةُ بالأسرار[٣].
فاعتزِلْنا؛ فلن تُراجِعَ وصلا ما أضاءت نجومُ ليلٍ لِسار[٤].
قلتُ: لا تصْرِمي لِتَكثيرِ واشٍ كاذبٍ في الحديثِ والإخبار[٥].
لم نَبُحْ عنده بِسِرّ، ولكنْ كَذِبٌ ما أتاك، والجبّارِ[٦].
لا تُطيعي، فإنني لم أطِعْه أنتَ أهوى الأحبابِ والأجوار[٧].

***

١٦- الرفق والأدب

طال ليلي وتعنّاني الطربُ، واعتراني طُولُ همّ ووَصَبْ[٨].

---

(١) جمح: نفر. الحدقة (بفتح ففتح): العين. المها: بقر الوحش (نوع من الظباء). الجؤذر (بالضمّ): ولد الظبية. ومين بأحدق (عيون)...: عيونهنّ تشبه عيون المها والجآذر.

(٢) نجارهم: أصلهم، لهم...رؤوس المنابر (لأنهم ولاة، وكان الوالي يخطب على المنبر ليبلّغ أوامر الدولة.

(٣) السادر: المستهتر، الذي لا يبالي ما يصنع.

(٤) لن ترجع وصلا: لن ترجع إلى وصلنا (إلى حبنا والاجتماع بنا). الساري: السائر ليلاً.

(٥) لا تصرمي: لا تقطعي (لا تهجريني). لتكثير: للكلام الكثير الذي يقال.

(٦) والجبّار: قسماً بالجبار (بالله).

(٧) الأجوار: جمع جار.

(٨) تعنّاه: عاوده (مرة بعد مرة). الطرب: خفة تلحق الإنسان من فرح أو حزن. الوصب: الوجع.

أرسلتْ أسماءُ في مَعْتَبَةٍ عَتَبَتْها، وهيَ أحلى من عَتَبْ[١]،
أن أتى منها رسولٌ مَوهِناً وجدَ الحيَّ نِياماً فانقلَبْ[٢].
ضَرَبَ البابَ فلم يشعُرْ بهِ أحدٌ يفتحُ عنه إذ ضرب.
فأتاها بحديثٍ غاظَها، شبَّهَ القولَ عليها وكَذَبْ[٣]:
قال: أيقاظٌ، ولكنْ حاجةٌ عَرَضَتْ تُكتِّمُ عنّا فاحتجَبْ[٤].
ولعَمْداً رَدَّني. فاجتهدتْ بيَمينٍ حَلفةً عند الغضب[٥]:
أشهِدُ الرحمنَ، لا يجمَعُنا سقفُ بيتٍ رَجَباً بعدَ رجب[٦].
قلتُ: حِلّاً، فاقبلي مَعْذَرتي: ما كذا يَجْزي مُحَبٌّ من أحب[٧].
أنّ كَفّي لك رَهْنٌ بالرِّضا فاقبلي، يا هندُ. قالت: قد وَجَبْ[٨].
فبَعثْنا طَبّةً عالمةً تمزجُ الجدّ مِراراً باللَعِب[٩]:
ترفعُ الصوْتَ إذا لانَتْ لها، وتُراخي عند سَوْراتِ الغضب.
لم تَزَلْ تَصرِفُها عن رأيِها وتأنّاها برِفْقٍ وأدب.
وهي إذ ذاك عليها مِئزرٌ ولها بيت جوارٍ من لعب[١٠].

---

(١) معتبة عتبتها. عتاب على شيء كانت قد غضبت منه.
(٢) موهناً: بعد نصف الليل. انقلب: رجع.
(٣) شبّه القول: جعله غامضاً.
(٤) وقال: كانوا مستيقظين، ولكن ربما كان عندهم من يريدون أن يكتموا وجوده فلم يفتحوا لي.
(٥) فاجتهدت... أكثرت من حلف الأيمان وهي غاضبة.
(٦) رجب: الشهر السابع من السنة الهجرية، رجباً بعد رجب: سنة بعد سنة.
(٧) قلت: حلا= أنا أحلك من اليمين التي أقسمتها (بأن أخرج فدية اليمين عنك). المحب (بضم ففتح): المحبوب.
(٨) هذه يدي أعاهدك على أن تكوني دائماً راضية عني (؟). وجب: كذب (؟).
(٩) فبعثت إليها امرأة طبّة (حاذقة، لبقة في الحديث، رفيقة أو لطيفة). عالمة: عارفة، خبيرة بمعاملة الناس.
(١٠)عليها مئزر (ثوب يلف حول أدنى الجسم)، كناية عن أنها صغيرة السن. جوارٍ: دمى، لعب (بضم ففتح) يلهو بها الأطفال.

١٧- ثلاث جوارٍ حسان

صَرَمتْ حَبْلَكَ البَغومُ؛ وصدّتْ عنك في غيرِ ريبةٍ أسماءُ.
والغواني إذا رأينكَ كَهْلاً كان فيهنّ عن هواكَ التِواء.
حَبّذا أنتِ، يا بَغوم وأسماءُ، وعيصٌ يُكِنُّنا وخلاء[1].
وقد قُلتِ ليلةَ الجَزْلِ لمّا أخضَلَتْ رَيْطتي عليّ السماء[2]:
كلّ وصلٍ أمسى لديّ لأنثى غيرِها وَصلُها إليها أداء[3].
كلّ خَلقٍ، وأن دَنا لوِصالٍ، أو نأى فهوَ للرّبابِ الفِداء.
فعدي نائلاً، وإنْ لم تُنيلي إنما ينفعُ المحِبَّ الرجاء.

١٨- الحب المتبادل

بنَفسيَ مَنْ شفّني حُبُّهُ، ومَن حُبُّهُ باطنٌ ظاهرُ[4].
ومَن لستُ أصبرُ عن ذِكرِهِ، ولا هُو عن ذِكرِنا صابر.
ومن إن ذُكِرنا، جَرى دمعُه ودمعِي لذِكري له مائر[5].
ومَن أعرِفُ الوُدَّ في وجهِه، ويَعرِفُ وُدّي له الناظر[6].

١٩- ... ولا نتكلّم...

يلومونني في غيرِ جُرم جَنيتُه، وغيريَ- في كلّ الذي كان- ألوم[7].

---

(١) العيص: شجر كثيف ملتف. يكننا: يسترنا.
(٢) الجزل= اسم موضع (؟). ليلة الجزل: ليلة اجتماعنا في الجزل. أخضلت: بللت. الريطة: ثوب من قطعة واحدة رقيق (من حرير) السماء: المطر.
(٣) كل اتصال لي بامرأة غايتي منه أن أصل إليها هي.
(٤) أفدي بنفسي تلك التي شفني (أمرضني: جعلني نحيلا) حبها.
(٥) مائر: متحرك، هائج، مضطرب.
(٦) أنا أعلم (من نظري إليه) أنه يحبني. والذين ينظرون إلي يعرفون أني أحبه.
(٧) جرم: ذنب كبير. جنيته: أذنبت.

أمِنتُ أُناساً أنتمو تأمنونَهُم، فزادوا علينا في الحديثِ وأوهموا.
وقالوا لنا ما لم نقُل، ثم أكثروا علينا، وباحوا بالذي كنتُ أكتُمُ
فلا تَصرميني إن تَريْني أحِبُّكم أبوءُ بذَنبي، إنني أنا أظلَمُ[١].
مُنعّمةٌ لو دَبّ ذرٌّ بجِسْمِها لكان دبيبُ النملِ في الجسم يَكلِمُ[٢].
أليسَ كثيراً أن نكونَ ببلدةٍ كِلانا بها ثاوٍ ولا نتكلّمُ[٣].

٢٠- حرمت النساء سواكمو

لقد أرسلتْ في السرِ ليلى تلومُني وتزعُمني ذا مَلّةٍ طَرِفاً جَلدا[٤].
تقولُ: لقد أخلَفتَنا ما وعَدتّنا. وبالله، ما أخلفتُها طائعاً وَعْدا.
فقلتُ مَروعاً للرسولِ الذي أتى: «تُراه لكَ الويلات من أمرها جدّا[٥]؟
إذا جِئتَها فاقْرَ السلام وقلْ لها: ذري الجوْر ليلى واسلُكي منهجاً قصدا»[٦]
تعُدّينَ ذنباً أنتِ، ليلى، جَنيتِه عليَّ، ولا أُحصي ذنوبَكُمُ عَدّا.
أفي غيْبَتي عنكم ليالٍ مَرِضتُها تزيدينني، ليلى، على مَرَضي جهدا[٧].
تجاهَلُ ما قد كان ليلى، كأنما أقاسي بها من حرّةٍ حَجرا صلدا[٨].

---

(١) أبوء بذنبي: أرجع بذنبي. أعاقب بذنبي. ترجع عاقبة ذنبي بالضرر عليّ.
(٢) لو سار الذر (صغار النمل)... يكلم: يجرح.
(٣) ثاو: ساكن، مقيم.
(٤) ذو ملة: يمل من الأشياء بسرعة. الطرف (بفتح فكسر): الرغيب العين الذي لا يرى شيئاً إلا أحب أن يكون له (يحب التنقل من شيء إلى آخر). الجلد: الصبور (لايزور أصدقاءه كثيراً)، يحتمل الشوق إلى المحبوب فلا يجتمع به.
(٥) مروع (بفتح فضم بلا تشديد): خائف، فزع.
(٦) ذوى (من وذر، وهو يستعمل في المضارع والأمر فقط): اتركي. قصداً: معتدلاً.
(٧) ليال (يجب أن تكون: ليالي) لأنها مفعول فيه منصوب. وهوممنوع من الصرف. الجهد: التعب، المشقّة.
(٨) تجاهل= تتجاهل. حرة: أرض بركانية حجارتها سوداء قاسية جدا. الصلد: الصلب (بالضم).

فـلا تَحسَـبي أني تمكّـثـتُ عـنـكـمُ، ونفسي ترى في مُكثِها عندكمو بُدا[١]»
ولا أن قلبي- الدهرَ- يَسلو حياته، ولا رائمٌ يـومـاً سـوى وُدِّكـم وُدّا[٢]،
لـكـي تـعـلـمـي أنّي أشـدُّ صَـبـابـةً وأحسنُ عند البَين من غيرِنا عَهْدا[٣].
غداً يكثرُ الباكونَ مِنّا ومِنكمو، وتـزدادُ داري مـن ديـارِكُـم بُـعْـدا.
فـإن تَـصْرمـيني لا أرى- الـدهـرَ- قُرّةً لعيْني ولا ألقى سُروراً ولا سَعْدا[٤]
فإن شِئتِ حرّمتُ النساء سِواكمو، وإن شئتِ لم أُطعَم نُقاخا ولا بَرْدا[٥].
وإن شئتِ غُرْنا نحوكم ثم لم نَزَلْ بـمـكّـةَ حـتى تجلـسـوا قـابـلاً نَجْدا.

٢١- لا يحل لكم دمي

فـلـمّـا الْـتـقـينا بـاحَ كـلٌّ بـسرّهِ، وأبـدى لها مِنّي الـسرورَ تـبَـسُّـمـي.
ألا قُـلْ لهـنـدٍ أحـرجـي وتـأثّمـي، ولا تـقـتُـليني لا يَحِـلُّ لـكـم دَمـي[٦].
وحُلي حِبالَ السِحرِ عن قلبِ عاشقٍ حزينٍ، ولا تَستَحْقبي قتلَ مُسلم[٧].
فـأنـتِ-وبيتِ الـلـهِ- همّي ومُنْيتي وكِـبْرُ مُـنـانـا مـن فـصيحٍ وأعْـجـم[٨].
والـلـهِ، مـا أحْـبَبْتُ حُـبَّـكَ أيِّمـاً ولا ذاتَ بعلٍ، يا هُنيدةُ، فاعْلمي[٩].
فصَدّتْ وقالتْ: كـاذبٌ وتجَهَّمَتْ؛ فـنـفـسي فِداءُ المُعرِضِ المُتجَهِّم[١٠].

(١) تمكث: انتظر ولم يعجل (في العمل أو المجيء). أنا لم أتأخر (بإرادتي) في المجيء إليك. وأنا أحب أن أبقى عندك طويلاً.
(٢) يسلو: ينسى، يتسلى عن شيء بشيء آخر. حياته (طول حياته). رائم: راغب في، مريد.
(٣) صبابة: حب، شوق. البين: البعاد.
(٤) صرم: قطع. الدهر (طول الدهر). قرة لعيني: رضا، اطمئنان.
(٥) النقاخ (بالضم): الماء الصافي العذب.
(٦) حرج (بفتح فكسر) يحرج (بفتح الراء): هاب، خاف. تأثم: تجنب الإثم (الذنب).
(٧) استحقب ذنباً: ارتكبه، أتاه، فعله.
(٨) وكبر منانا. معظم (أعظم) ما أتمنى. بيت الله: الكعبة.
(٩) الأيّم (التي آمت من زوجها): الأرملة. البعل: الزوج.
(١٠) صدت: مالت، أدارت وجهها. تجهّم فلان فلاناً أو تجهم فلان لفلان: استقبله بوجه كريه، بغضب.

فقالت، وصدّتْ: ما تزالُ مُتيَّماً صَبوباً بنجدٍ ذا هوىً مُتَقسِّم[(١)]؟
ولمّا الْتَقيْنا بالثنيَّةِ أوْمَضَتْ مَخافةَ عينِ الكاشحِ المُتَنمِّم[(٢)]:
أشارتْ بطَرْفِ العينِ خَشيةَ أهْلِها إشارَةَ محزونٍ ولم تتكلم.
فأيقنْتُ أنَّ الطرفَ قد قالَ: مَرْحباً وأهلاً وسهلاً بالحبيبِ المتيّم.
فأبردتُّ طَرْفي نحوَها بتحِيّةٍ وقلتُ لها قولَ امرىءٍ غيرِ مُفحَم[(٣)]:
«وإني لأُذْري، كلما هاجَ ذِكرُكم، دموعاً أغصّت لهجتي بتكلّمي[(٤)].
وأنقادُ طوْعاً للذي أنتِ اهلُه على غِلطةٍ منكم لنا وَتجَهُّم.
ألام على حُبي كأني سَنَنْتُه؛ وقد سُنَّ هذا الحبُّ من قبلِ جُرهم»[(٥)]
فقالت: «أطعتَ الكاشِحين». ومن يُطعْ مقالةَ واشٍ كاذبِ القولِ يَندَم.
وصرّمْتَ حبْلَ الوُدِّ من وُدِّك الذي حَباكَ بمَحْض الوُدّ قبل التفهُّم»[(٦)]
فقلتُ: «اسَمعي، يا هندُ، ثم تفهّمي مقالةَ محزونٍ بحُبِّكِ مُغرَم:
لقد ماتَ سِري واستقامتْ مَودّتي ولم ينشرح بالقول، يا حِبّتي، فَمي[(٧)].
فإن تقتُلي في غيرِ ذنبٍ أقُلْ لكم مقالةَ مظلومٍ مَشوقٍ مُتيَّم:

(١) المتيم: المحب، الصبوب: المنصرف بكليته إلى الشيء. ذا هوى منقسم: (تحب نساء كثيرات في وقت واحد).

(٢) الثنية اسم مكان. أومض: أشار إشارة خفية رمزاً أو غمزاً. أومضت المرأة: سارقت النظر (نظرت بجانب عينها) تبسمت. الكاشح: المبغض. المتنمّم: الذي يقوم بالنميمة (بنقل الكلام السيء المختلق ليفسد بين الناس).

(٣) أبرد: أرسل رسالة بالبريد (أشرت إليها بعيني). المفحم: العاجز عن الجواب.

(٤) أذرى: نثر، فرّق.

(٥) سنّ الرجل الشيء: جعله سنة (بضم السين): طريقة متبعة، قاعدة، قانوناً. جرهم: جد قديم للعرب.

(٦) انصرفت أنت عن حب الذي منحك حبه قبل التفهم (قبل أن يفهم الكلام: منذ كان صغيرا).

(٧) مات سري (كتمته عن جميع الناس. قال الأخطل: «وأميت عندي السر بالكتمان». استقامت مودتي: أخلصت (لك) في حبي. الحبة (بالكسر: مؤنث) الحب (بالكسر أيضاً): المحب أو المحبوب. لم ينشرح به فمي: لم أذكره أحد.

هنيئاً لكم قَتلي وصَفْو مَودّتي، فقد سِيط من لَحمي هواكِ ومن دمي[1]

٢٢- حبّ متبادل

بنَفسي مَن أشتكي حُبَّهُ، ومَنْ إن شكا الحُبَّ لم يكْذِبِ.
ومَنْ إنْ تَسخَّطَ أعْتَبْتُه، وإنْ يَرَني ساخِطاً يُعْتِب[2].
ومَنْ لا أُبالي رِضا غيرِه إذا هو سُرّ ولم يَغْضَب
ومن لا يُطيعُ بنا أهلَه، ومنْ قد عصيت له أقْرَبي.
ومن لو نهاني عن حُبّه مِن الماءِ عطشانَ لم أشْربِ[3].
ومن لا سِلاحَ له يُتَقى، وإن هو نُوزِلَ لم يُغلَبِ[4].

***

٢٣- بيع أم بثمان؟

لقد عَرَضتْ لي بالمُحَصَّبِ من مِنَى مَع الحجِّ شمسٌ سُتِّرت بيَمانِ[5].
بدا لِيَ منها مِعْصَمٌ يومَ جَمَّرَتْ وكفٌّ خضيبٌ زُيِّنَتْ ببَنانِ[6].
فلما التَقيْنا بالثَنِيَّةِ سَلّمَتْ، ونازَعني البغلُ اللعينُ عِناني[7].

---

(١) ساط: خلط، مزج.
(٢) تسخط: أبدى السخط (الكره مع الغضب). أعتب: أرضى.
(٣) ومن لو نهاني (منعني) عن حبه (من حبي له؟) عن (شرب) الماء عطشان (وأنا عطشان)...
(٤) يتقى: يخشى، يخاف (بنائهما للمجهول). نوزل: لقيه خصمه في مبارزة (في الحب لا في الحرب).
(٥) عرضت لي: بدت لي (رأيتها عرضاً). المحصّب (مكان رمي الجمار في منى قرب مكة). شمس (امرأة جميلة) يمان (ثوب حرير من نسيج اليمن).
(٦) جمّرت: رمت الجمرات (سبع حصيات صغار. ورمي الجمار منسك من مناسك الحج) خضيب (مخضوب بالحناء) زينت ببنان (أنامل معنمة مصبوغة باللون الأحمر).
(٧) الثنية اسم مكان. نازعني البغل عناني (عنانة: رسنه): أردت أن أكبح البغل ليقف وأرى المحبية، ولكن البغل ظل مستمراً في السير.

فواللهِ، ما أدري- وإني لحاسِبٌ- بسَبْعٍ رمَيْتُ الجمْرَ أم بِثَمانِ[1].

٢٤- عتاب شديد

هَيْهاتِ من أمَةِ الوهّابِ منزِلُنا إذا حَلَلنا بسيفِ البحرِ من عَدَنِ[2]،
واحتلَّ أهلُك أجياداً، فليسَ لنا إلا التذكُّرُ أو حَظٌّ من الحَزَنِ[3]،
وقولُها للثُرَيّا يومَ ذي خُشُبٍ والدمعُ منها على الخدّين ذوسَنَنِ[4]:
لا دارُكم دارُنا، يا وهْبَ إذ نَزَحتْ نواكِ عنّا، ولا أوطانُكم وطني[5].
فلَسْتُ أمْلِكُ إلّا أن أقولَ إذا ذُكِرْتَ لا يُبعِدَنْكِ اللهُ، ياسَكَني.
لا للهِ، قولي له فغيرِ مَعْتبَةٍ: ماذا أخذتَ بتَرْكِ الحجِّ من ثَمَنِ[6]؟
فلو شَهِدتَّ غداةَ البَيْنِ عَبْرَتنا (وقد) تغرَّدَ قُمْريٌّ على فَنَنِ[7]،
لاسْتيْقنَتْ غيرَ ما ظنَّتْ بصاحبها، وأيقنَتْ أن عَكا ليس مِن وَطني[8].

***

٢٥- أمبد سؤالك العالمينا؟

أصبحَ القلبُ في الجِمال رَهينا مُقصَداً يومَ فارقَ الظاعِنينا[9].

---

(١) حاسب: قدير في الحساب. يكون التجمير برمي سبع حصيات.
(٢) هيهات: ما أبعد.. أمة الوهاب (اسم فتاة). سيف (بالكسر)البحر: شاطىء البحر. عدن في اليمن.
(٣) أجياد مكان قرب مكة. حظ: قدر، مقدار، نصيب.
(٤) سنن: طريق، مسالك (من كثرة البكاء).
(٥) نزحت: بعدت. النوى: الفراق. نزحتنواك: طال فراقك. وهب: أمة الوهاب.
(٦) معتبة: موجدة (غضب). ترك الحج: الغياب عن موسم الحج.
(٧) البين: الفراق. البرة: الدمعة (البكاء). تغرد: غنى. قمري: نوع من الحمام. فنن: غصم.
(٨) لتغيّر رأيها فيّ وعلمت يقيناً أن عكا (بلد في اليمن جنوب بلاد العرب مثل صور أيضاً وغيرها) ليس من وطني (لاأريد أن أستقر فيها)، سأرجع إلى مكة.
(٩) في الجمال: مع اللواتي هنّ مسافرات على الجمال. مقصداً: مقتولاً. الظاعنون: المسافرون.

عَجِلَتْ حُمَّةُ الفِراقِ علينا ... برحيلٍ؛ ولم نَخَفْ أن نَبينا[١].
لم يَرُعْني إلا الفتاةُ وإلّا ... دمعُها في الرداء سحّا سَنينا[٢].
ولقد قُلتُ- يومَ مكّةَ، سرّا- ... قبلَ وشكٍ من بَيْنِكم: «نَوّلينا[٣].
أنتِ أهوَى العباد قُرباً ودَلاً، ... لو تُنيلين عاشقاً محزونا[٤].
قادهُ الطَرفُ، يوم مرّ، إلى الحَيْـ ... ـنِ جِهاراً، ولم يَخَفْ أن يَحينا)[٥]..»
قلتُ: مَن أنتمو؟ فصدّتْ وقالتْ: ... «أمُبِدٌّ سُؤالَكَ العالمينا[٦]؟»
قلتُ: «باللهِ ذي الجَلالةِ، لمذا ... أن تَبِلْتِ الفؤادَ، أن تصدُقينا[٧].
أيُّ مَنْ تجمَعُ المواسمُ؟ قولي وأبيني لنا ولا تكتُمينا»[٨].
«نحنُ مِن سكانِ العراقِ، ... وكُنّا قبلَها ساكنينَ مكةَ حينا.
قد صَدَقناكَ إذ سألتَ. فمَنْ أنـ ... ـتَ؟ عسى أن يَجُرَّ شأنٌ شؤونا[٩].
ونرى أننا عَرَفناك بالنَعْـ ... ـتِ بظنٍّ وما قَتلْنا يَقينا[١٠]،
وسوادِ الثنيَّتَيْنِ ونعتٍ ... قد تراه لناظر مُستبينا[١١]».

---

(١) الحمّة: اقتراب، حلول؛ من حم (بالبناء للمجهول). ولم (نكن) نخاف أن نبين (نفترق، نعد، نغيب).
(٢) لم يرعني: لم يفزعني (كنت غافلاً، فلم أدر إلا وهذه الفتاة تبكي). سحاً (منسكباً) سنيناً (متتابعاً).
(٣) قبل وشك (اقتراب) من بينكم (فراقكم، توديعكم). نوّلينا: اعطينا (صلينا، متعينا).
(٤) أهوى: أحبّ. الدلّ: جرأة المرأة على الرجل إذا وثقت بمحبته لها.
(٥) طرف (النظر). الحين (الموت). لم يخف أن يحين (يموت، لو استطاع أن يتصل بالمحبوب).
(٦) صدّت: مالت، أعرضت (أدارت وجهها). أمبدّ (أنت) سؤالك (بالنصب) العالمينا؟ (في تاج العروس الكويت٤١١ : ٧): أمقسّم أنت سؤالك على الناس واحداً واحداً حتى تعمهم؟ (أليس لك بد من سؤال كل إنسان تراه؟).
(٧) تبل الحب الرجل: أسقمه وذهب بعقله.
(٨) أي من تجمع المواسم (الحج): من أي البلاد انت؟ أبيني: أظهري، صرّحي.
(٩) جر شأن شؤونا (جر بعض الأمور بعضاً، جعل الحديث حجة لغايات أخرى).
(١٠) بالنعت: بالوصف (الذي نقل إلينا). ما قتلنا يقيناً (لسنا على يقين تام).
(١١) وسواد الثنيتين (وبسواد الثنيتين، السنين الأماميتين). كان عمر يوماً يمازح الثريا فثقل عليها مزحه فضربته بظاهر يدها، وكانت تضع في أصابعها خواتم كثيرة أو خاتماً كبيراً، فأصابت أسنانه فتقلقل منها سنان أماميتان. عالج عمر هاتين السنين فثبتا ولكن اسودتا.

٢٦- كثرة التعداد

أرسلَتْ تَعْتِبُ الرَبابُ وقالتْ: «قد أتانا ما قُلتَ في الإنشادِ».
قلتُ: «لا تَغضَبِي فِدىً لك قولي بلساني وما يُجِنّ فؤادي[١].
ثم لا تغضبي، فِداؤكِ نفسي ثم أهلي وطارِ في وتِلادي[٢].
إن تَعودي تكُنْ تِهامةُ داري، وبنَجْدٍ إذا حَلَلتِ مَعادي[٣].
أنتِ أهوى إليَّ من سائرِ النا سِ. ذريني من كَثرةِ التعداد[٤]»

٢٧- ... ويمسح عينه بيد

كَتبْتُ إليك من بَلَدي كِتابَ مُوَلّهٍ كَمِدِ[٥]،
كئيبٍ واكفِ العَيْنَيـ نِ بالحَسرات مُنفرِد[٦].
يؤرِّقُه لهيبُ الشَوْ قِ بين السَحْرِ والكَبِد[٧]،
فيُمْسِكُ قلبَهُ بيَدٍ ويمسَحُ عَيْنه بيدِ.

٢٨- وداع

...ثم قالتْ، ودَمعُها يَغسلُ الكُحْـ ـلَ مِراراً يُخالُ دُرّاً نَظيما[٨]:
«ولا يكونَنَّ آخِرَ العهدِ هذا، يا ابنَ عمّي، ولا تُطِيعَنْ نَموما».

---

(١) فدى لك قولي بلساني وفدى لك ما يجن (يخفي) فؤادي: فدى لك جميع الناس، سواء منهم من أذكرهم بلساني ومن لا أذكرهم.
(٢) الطارف: المال الجديد (الذي يكسبه الشخص نفسه) والتالد أو التليد: المال القديم (الموروث).
(٣) إن تعودي (إليّ): تصالحيني. تهامة: ساحل الحجاز (مكة). حلَّ: نزل، سكن.
(٤) أهوى: أحب (أكثر حباً). ذريني: دعيني (اعفيني من كثرة التعداد: ذكر فلانة وفلانة...).
(٥) مولّة: من أدّى به الحب إلى الجنون. كمد: حزين.
(٦) وكفت عينه: سال دمعها.
(٧) أرقه: منعه من أن ينام. السحر (بالفتح أو بالضم): أعلى الصدر.
(٨) درّاً (لؤلؤاً) نظيماً (منظوماً في سلك أو خيط): دموعها متتابعة.

رُبَّ ليلٍ سَمَـرْتُ فـيه قـصيرٍ ورفـيقٍ قـد كـان كُـفْـؤاً كـريمـا،
ثم أحْـيَـيْـتُـه أُنـازعُ فـيه شـادنـاً أحْـوراً أغـنّ رخـيـمـا[١].
بـاتَ وَهْـنـاً يمُـجُّ في فِيّ مِـسـكـاً شـابَ ثَـلـجـاً وعـاتِـقـاً مختـومـا[٢].
ثم إنّ الـصـبـاحَ دُلَّ عـلـينـا إذ رَأيْـنـا مـن الـصّـبـاحِ نُجـومـا.

***

---

(١) أحيت الليل: سهرته، سهرت فيه. أنازع شادنا (ظبياً صغيراً: فتاة جميلة): أتحدث معه. أحور (شديد بياض العين وشديد سوادها). أغنّ (في صوته غنّة أو رنّة). رخيم الصوت (حلو اللفظ).

(٢) بات: قضى الليل. وهنا: نصف الليل بات وهناً: قضى الليل إلى نصفه. مجّ: لفظ، أخرج من فمه. شاب: (خلط) ثلجاً (يثلج) كناية عن برد (برودة) ريقه. عاتق (خمر) عاتق مختوم (خمر فتح إناؤها للمرة الأولى).

المصادر والمراجع

ديوان = ديوان عمر بن أبي ربيعة.

ابن سلّام = طبقات الشعراء لمحمد بن سلّام (استخرجه الدكتور يوسف هل) ليدن ١٩١٣.

ابن قتيبة = كتاب الشعر والشعراء لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة (استخرجه ده خويه)ليدن ١٩٠٢ (١٩٠٤).

غ= كتاب الأغاني لأبي الفرج عليّ بن الحسن الأصفهاني، الأجزاء ١- ١١ دار الكتب المصرية في القاهرة، الأجزاء الباقية، بولاق ١٢٨٥ هـ، إلّا الجزءَ الحاديَ والعشرين، ليدن ١٣٠٥هـ (١٩٣٤م).

-ابن خلّكان= وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأحمد بن خلّكان، مصر (المطبعة الميمنية)١٣١٠هـ.

-ديوان عمر بن أبي ربيعة (طبعة باول شوارتز- القصائد فيها مرقّمة):

- Der Diwn des (Umar Ibn Abi Rebia)... (herausgegeben von Paul Schwarz) erste Halfte, zweite Hlfte: zwei Teile und viertes (Schluss-) Heft, leizig 1901- 1909.

-ديوان عمر بن أبي ربيعة المخزومي القرشي (اللبابيدي- الغمراوي)، مصر (المطبعة الميمنية) ١٣١١هـ.

-ديوان عمر بنأبي ربيعة (حرّره بشير يموت)، بيروت (المكتبة الأهلية)١٩٣٤م؛ (دار صادر ١٩٦١؛ (تحقيق محمد الزهري الغمراوي)، مصر (المطبعة الميمنية) ١٣١١هـ؛ (شرح محمد العناني)، مصر ١٣٣٠هـ.

-عمر بن أبي ربيعة لجبرائيل جبور، ثلاثة أجزاء[١]، بيروت، ١٩٣٥، ١٩٣٩، ١٩٧١م،

-حبّ ابن أبي ربيعة، تأليف زكي مبارك، الطبعة الثالثة، مصر ١٩٢٨.

-شاعر الغزل، تأليف عباس محمود العقاد، القاهرة١٩٤٢ (سلسلة اقرأ).

-الثريّا لكمال بسيوني، القاهرة (دار المعارف) ١٩٥٤ (سلسلة اقرأ ١٨٣).

-الأمالي أ = مجلة الأمالي- بيروت- السنة الثانية، العدد السابع.

-الأمالي ب = مجلة الأمالي - بيروت - السنة الثانية، العدد السادس عشر.

- عبقرية اللغة العربية، تأليف عمر فرّوخ، بيروت (دار الكتاب العربي) ١٤٠١هـ= ١٩٨١م.

- Geschichte arabischen Litterature, von Carl Brockelmann- funf Bande, Leiden 1937- 1949.

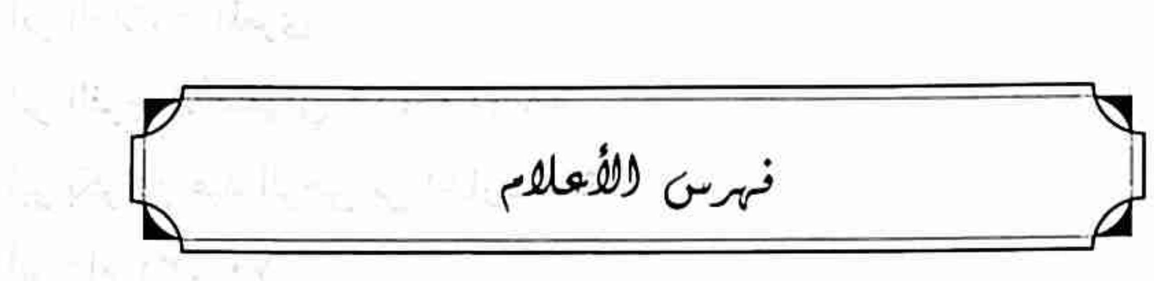
- Ens. Isl. = the Encyclopedia of Islam (first Eng. Ed.).

- Bemerkungen uber die Achtheit der alten arabischen Gedichte, von Wilhelm Ahlwardt, Greisswald 1872.

- Uber Poesie und Poetik der Araber, von Wilhelm Ahlwardt, Gotha1856.

- Die arabische Dichtung im Rhmen der Weltliteratur, von Joseph Hell, Erlangen 1927.

(١) صدر الجزء الثالث منه بعنوان «حب عمر ابن أبي ربيعة وشعره»، بيروت (دار العلم للملايين) ١٩٧١م.



فهرس الأعلام

الفهرسة العامة